د. أسامة عبد الرءوف الشاذلي

يأجوج ومأجوج

* ولقاء مع ذي القرنين *

أوراق للنشر والتوزيع

2575565132

يأجوج ومأجوج
ولقاء مع ذي القرنين

د. أسامة عبد الرءوف الشاذلي

الطبعة الأولى: 2025

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر

186 عمارات امتداد رمسيس 2
مدينة نصر - القاهرة - مصر
هاتف: 20220812006+
rewaq2011@gmail.com
www.alrewaqpublishing.com
الإخراج الفني: ضياء فريد
تصميم الغلاف: عبد الرحمن الصواف
المراجعة اللغوية: منة سويد
الترقيم الدولي: 978-977-824-285-0
رقم الإيداع: 9414/ 2025

رقش

@N_BHS2

رمز QR

مشاركة رمز QR

مسح رمز QR

إهداء

إلى أبي دكتور عبد الرءوف الشاذلي رحِمه الله: هذه ثمرةٌ مُهدَاةٌ من نبتةٍ قد زرعتَها، فرعيتَها حقَّ رعايتِها

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله. أما بعد، لا أنكر أنني قبل البدء في هذه الدراسة الموجزة عن يأجوج ومأجوج، كنت أرسم في ذهني صورة خيالية عن هذه القصة، التي وقع جزء من أحداثها في الماضي السحيق، ويتبقى منها جزء ذكره القرآن الكريم كنبوءة تحدث قبيل نهاية العالم. كانت الصورة المرسومة في مخيلتي أشبه بالأساطير الإغريقية أو أفلام الرعب الأمريكية، أبطالها مخلوقات مشوهة شديدة الشراسة، يتلذذون بأكل لحوم البشر وشرب دمائهم، ويتناسلون بسرعة رهيبة، تنشق عنهم الأرض من كل حدب وصوب، ويهبطون على البشر من مكان يختبئون فيه منذ قديم الأزل، لا يعلمه إلا الله. يسفكون الدماء، ويهلكون الزروع، ويشربون مياه الأنهار حتى تجف، ثم ينتهي الأمر بخراب ودمار شديدين، يمهدان لقيام الساعة. ولعل السبب في تكوين هذه الصورة الخيالية في ذهني هو بعض ما قرأته في مرحلة الصِبا من كتيبات عن علامات الساعة وفتن آخر الزمان، بما تحويه هذه الكتيبات - مجهولة المصدر - من أحاديث قلَّ فيها الصحيح، وكثُر فيها الموضوع والضعيف، واختلطت فيها التفاسير بالأساطير. ولا أُنكر أيضًا أنني كنت أشعر منذ صغري بغرابة هذه التفاسير، فقد كانت تثير في عقلي وفي نفسي شعورًا بعدم الارتياح. وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم، وتلين له أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم قريب، فأنا أولاكم به. وإذا سمعتم

الحديث عني تنكره قلوبكم، وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم بعيد، فأنا أبعدكم منه(1)».

وقد دفعني هذا الشعور إلى البدء في البحث والتدقيق في أمر هذه القصة، التي كثرت فيها الروايات والآراء، وكان هدفي هو استجلاء أحداثها، والفاعلين لها، ومكان حدوثها. استعنت على ذلك بعدد ضخم من المراجع الشرعية، كتفسير «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي، وتفسير ابن كثير، و«جامع البيان» للطبري، و«صفوة التفاسير» للصابوني، وتفسير الإمام الشعراوي، رحمهم الله أجمعين. وكي أستبين المعاني اللُغوية والدلالات اللفظية لكلمات القرآن التي تناولت هذه القصة، استعنت بمعاجم اللغة العربية، مثل «لسان العرب»، و«المعجم الوسيط»، و«مختار الصحاح». كما استعنت على توضيح الحقائق العلمية والتاريخية الواردة في هذا البحث بعدد كبير من المقالات الأكاديمية المنشورة في الدوريات العلمية المتخصصة، إلى جانب الموسوعات الكبرى، مثل «الموسوعة العربية العالمية» و«الموسوعة البريطانية».

وقد التزمت في هذا البحث بأن أنتقي من آراء المفسرين ما يتفق مع دلالات الألفاظ والآيات في القرآن الكريم، أو ما اتفق عليه الشيخان البخاري ومسلم في صحيحيهما من أحاديث المصطفى ﷺ. أما باقي الآراء التي لا تستند إلى دليل من القرآن الكريم أو من الأحاديث المتفق عليها، فلم نأخذ بها، واكتفينا بالإشارة إلى بعضها.

وحيث إن خروج يأجوج ومأجوج يعد من علامات الساعة الكبرى التي تنذر بنهاية الحياة على كوكب الأرض، فإنه من الضروري أن تتم دراسة هذا الحدث بوجهة نظر علمية معاصرة، وعدم الاكتفاء بدراسة الشق التاريخي أو الديني منها، لا سيما أن التطور التقني والعلمي قد يدفع البعض إلى تساؤلات عدة تثير الحيرة، مثل:

- أين يأجوج ومأجوج الآن؟

- كيف تغفل الأقمار الصناعية عن اكتشاف شعب كامل مختبئ تحت الأرض؟

جميع الحقوق محفوظة لقناة رَقَش

- أين السد؟

- كيف يثير هذا الحدث رعب البشر أجمعين، مع ما وصلت إليه البشرية من تقدم علمي وتقني في التسليح؟

إلى آخره من الأسئلة التي لا تنتهي.

وبعد شهور طويلة من البحث، توصلنا إلى تأويلنا عن يأجوج ومأجوج وذي القرنين، في ضوء ما ورد من آيات في القرآن الكريم، وما ورد من أحاديث صحيحة متفق عليها، وما يتفق مع العقل السليم من أقوال المفسرين، إلى جانب الحقائق العلمية والجغرافية التي تتعلق بمستقبل الحياة على كوكب الأرض.

وقد قسمنا هذه الدراسة إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: يأجوج ومأجوج في القرآن والسنة

ذكرنا فيه ما ورد في القرآن الكريم والأحاديث النبوية المتفق عليها عن يأجوج ومأجوج، وأقوال المفسرين في ذلك.

الفصل الثاني: البحث عن يأجوج ومأجوج

تناولنا فيه النقاط التالية:

- البحث عن المكان الذي وقعت فيه الأحداث.

- البحث عن القوم الذين لا يكادون يفقهون قولًا، وهم جيران يأجوج ومأجوج.

- تفسير المؤلف ليأجوج ومأجوج.

- الأدلة العلمية على رأي المؤلف.

- الأدلة الدينية على رأي المؤلف.

- رأي المؤلف في السد.

- رأي المؤلف في العين الحمئة.

- ذِكر ما ورد عن جوج وماجوج في التوراة.

الفصل الثالث: البحث عن ذي القرنين

تناولنا فيه آراء المؤرخين والفقهاء عن شخصية ذي القرنين، ودراسة

جميع الشخصيات المقترحة بالنقد والتحليل، ثم عرضنا النقاط التالية:

- صفات ذي القرنين في القرآن والسنة.

- الشخصية التي يقترحها المؤلف لأن تكون شخصية ذي القرنين، والأدلة على ذلك، مع عرض تاريخ هذه الشخصية المقترحة.

وأخيرًا، لقد أمرنا الله -سبحانه وتعالى- بقراءة آياته بتدبر وتعقل، وحثنا على التأمل والنظر إلى الكون، فقال جلَّ وعلا:

{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}.

فأسأل الله أن يرزقني أجر المجتهد المصيب، وإن جانبني الصواب، سألته أجر الاجتهاد والنية، إنه هو الغفور الرحيم.

د. أسامة عبد الرءوف الشاذلي

أغسطس 2011

مقدمة الطبعة الجديدة

حين وضعت هذا التفسير عن يأجوج ومأجوج منذ ما يقرب من خمسة عشر عامًا، لم أتخيل أن أرى في كل يوم أدلة جديدة تشير إلى قرب وقوع تلك المحنة كما تصورتها في هذا الكتاب، حتى إن الأصدقاء المقربين الذين قرأوا الكتاب قديمًا، أو استمعوا إلى محاضراتي، قد حثّوني أكثر من مرة على إعادة نشره لتعمّ فائدته على الناس، خصوصًا أننا في عصر يتزايد فيه الإلحاد والتشكيك في أمور الدين، وينْفُذْ هؤلاء المشككون من خلال الأمور الغيبية التي سكت القرآن عن توضيحها، ولم يبينها الرسول ﷺ في أحاديثه، واقتصر فهمنا لها على آراء المفسرين الذين اجتهدوا بمعطيات عصرهم في تأويل تلك الغيبيات. ورغم تقدير الكثيرين لهذا الاجتهاد الذي قمت به، واطمئنان عدد كبير من أهل العلم المعتبرين له، وعلى رأسهم أبي رحمة الله عليه، الأستاذ السابق بجامعة الأزهر وجامعة الإمام محمد بن سعود، وكذلك اللجنة العلمية لمكتبة المسجد النبوي بالمدينة المنورة، التي أجازت الكتاب، واحتفظت بنسخة منه ضمن مقتنياتها، وسمحت للباحثين، والعامة بالاطلاع عليها، إلا أنني سأتوقف أمام بعض التعليقات التي سمعتها من بعض المنتقدين، مثل لماذا نشغل بالنا بقضية غيبية، العلم بها لا ينفع، والجهل بها لا يضر؟ وكيف نضع تفسيرًا جديدًا ليأجوج ومأجوج لم يذكره أحد من المفسرين طيلة ألف وأربعمائة عام؟ وهل يجوز لي وأنا الطبيب أن أجتهد، حتى لو امتلكت بعض المقومات اللغوية،

ونشأت في بيت عالم أزهري؟

وبداية أقول إن الإيمان بالغيبيات هو ركن من أركان الإيمان، فقد قال تعالى في مفتتح سورة البقرة: {الم ١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ٣} (سورة البقرة 1-3).

ولا يمنع الإيمان بالغيبيات والتسليم بها من إعمال العقل، والتفكر فيها في محاولة لتدبرها أو تأويلها. فالتدبر غاية من الغايات الكبرى لقراءة القرآن الكريم كما قال الله عز وجل: {كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} (سورة ص 29).

بل إن القرآن الكريم قد حثَّنا على التفكير فيما نعجز عن إدراكه أحيانًا، فقال تعالى: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ} (سورة العنكبوت 20)، رغم أنه قد ذكر في موضع آخر أن بدء الخليقة أمر غيبي لم يشهده أحد: {مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا} (سورة الكهف 51).

ومثلما امتدح القرآن التدبر والتأمل والتفقه وإعمال العقول في آيات الله العديدة، نَعَى على المخالفين التقليد الأعمى والسير على نهج الأولين، وتعطيل العقول، فقال تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ

الَّتِي فِي الصُّدُورِ} (سورة الحج 46)، وقال أيضًا: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} (سورة محمد 24). **ومن** الأشياء المثيرة للاهتمام، أن الله قد تعهد باستمرار فهم القرآن وكشف أسراره وتبيان معانيه بعد انقطاع الوحي، وحتى قيام الساعة فقال تعالى: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} (فصلت 53).

والأمور الغيبية تنقسم إلى قسمين، غيب مطلق، وغيب نسبي. والغيب المطلق هو ما استأثر الله بعلمه، ولا سبيل لمعرفته أو تأويله لعجز الإدراك عن استيعابه: {وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ} (سورة الأنعام 59). ومن هذه الأمور صفات الله عز وجل، والروح، وأمور الآخرة، والجنة والنار وغيرها. أما الغيب النسبي، فهي الأمور المتعلقة بالماضي أو المستقبل، وأنزلها الوحي على الرسول ﷺ ليعلمه إياها {ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ} (سورة آل عمران 44). وقد يجتهد المفسرون في تفسيره إذا لم يفسره القرآن أو سكت عنه الرسول ﷺ.

ومن أكثر أمور الغيب النسبي التي اجتهد المفسرون في معرفتها، أسماء الشخصيات التاريخية التي ذُكرت في القرآن، ولم يُسمها الرسول ﷺ، وكذلك الآيات الكونية التي تتحدث عن الفلك والنجوم، والأحداث المستقبلية مثل الدخان، ويأجوج ومأجوج، وغيرها. وحين نأخذ مثلًا

شخصية ذي القرنين التي سنتطرق لها في هذا المبحث، سنجد الكثير من الاجتهادات من علماء التفسير حول اسم هذه الشخصية، وسنجد أن بعضها يقع في أخطاء تاريخية فادحة، نظرًا للقصور المعرفي وندرة المعلومات المحققة تاريخيًا في عصرهم. فعلى سبيل المثال، هناك أخطاء تاريخية كبيرة بخصوص تاريخ الإسكندر الأكبر فيما رواه الطبري عن محمد بن إسحاق، عن وهب بن منبه، الذي يرى أن الإسكندر هو ذو القرنين. والشيء نفسه ينطبق على تفسير بعض الآيات الكونية، مثل قوله تعالى: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}، فالكثير من التفسيرات التي ذُكرت لهذه الآية تتنافى تمامًا مع ما توصل إليه العلم الحديث. ويدفعنا هذا إلى القول بأن أمور الغيب النسبي، التي أسهب المفسرون في تأويلها قديمًا بما توفر لديهم من معلومات، تحتاج إلى إعادة قراءة بما توافر لدينا من معلومات أدق وأفضل، خصوصًا إذا ما جرت هذه الاجتهادات الخاطئة مجرى الاعتقاد الراسخ عبر التاريخ، واصطدمت مع حقائق علمية قد تفتح الباب للمشككين في الدين ودعاة الإلحاد. وقصة يأجوج ومأجوج من الأمور الغيبية التي تتعلق بمستقبل الحياة على كوكب الأرض، خصوصًا أن الأديان الثلاثة قد تحدثت عنها، مما يدل على أننا أمام حدث جلل يجب النظر إليه بعين الاعتبار. فقد وردت نبوءة جوج وماجوج في سفر حزقيال في التوراة، وورد كذلك اسمهما في سفر الرؤيا في إنجيل يوحنا. وكل الأفكار المغلوطة، والأحاديث الضعيفة التي نراها في السنة، كان مصدرها الرؤية التوراتية ليأجوج ومأجوج، وهي الرؤية التي أفسدت سياسات العالم

ولا تزال، لا سيما بعد أن تبنتها فرق اليمين المسيحي المتطرف الذي يقسِّم العالم الآن إلى محور للشر، ومحور للخير، وبالطبع وضعوا المسلمين ضمن محور الشر المتحالف مع جوج وقومه!

وبعيدًا عن هذه الترهات، يجب التفكر والتدبر في أمر يأجوج ومأجوج، أولًا؛ لأنها وردت في القرآن الكريم، وثانيًا؛ لأن الفهم الخاطئ للقصة التوراتية يدفع العالم إلى حتفه الآن، ويُسْتَغَل سياسيًا، مثلما استُغِلت الكثير من الأساطير الدينية من قبل، من أجل تحقيق مكاسب سياسية يهلل لها الجهلة والعوام. ونحن نرى من خلال التأويل الذي وضعناه، أن المحنة الكبرى التي سيشهدها العالم، والتيْ أخبرتنا عنها الديانات تستدعي التفكير في طرق الاستعداد لها، وانتهاج سبل العلم لمحاولة الحد من خسائرها.

وقد يتساءل أحدنا، وهل يمكن أن يكون العلم مخرجًا من هذه المحنة؟ والإجابة القاطعة هي: نعم، خصوصًا إذا كانت قصة ذي القرنين في القرآنِ تُعلي من شأن العلم والعلماء، وأن هناك شخصًا اسمه ذو القرنين تحلى بالمعرفة ليتصدى لهم قديمًا.

ويتبقى هنا سؤال أخير؛ ما الضوابط لمن يريد أن يتصدى للتفسير؟ وأقتبس هنا ما ذكرته دار الإفتاء «أنَّه لا يجوز إطلاقًا أن يعتمد المُفَسِّر للقرآن الكريم على رأيه الشخصي الذي لا سندَ له من الكتاب أو السنة أو قواعد اللغة العربية؛ فإنَّ التفسير بالرأي والاجتهاد لكي يكون مقبولًا لا بدَّ

2575565132

أن يكون مستندًا إلى ما يؤيده من القواعد الشرعية، ومن أساليب اللغة العربية».

وقد اجتهدت في تقديم هذا التفسير مستندًا على تلك القواعد، وربما سيلحظ القارئ المعتاد على أسلوبي الأدبي، جفافًا في المحسنات والبلاغة، وحرصي على تقديم المعلومة بصورة مباشرة، لا تحتمل اللّبس أو التأويل، وهذا أنسب لهذا المقام. وأخيرًا أسأل المولى -عز وجل- أجر المجتهد المصيب، وإن أخطأت، فأسأله وحده المغفرة.

مارس 2025

جميع الحقوق محفوظة لقناة رَقَش

الفصل الأول

يأجوج ومأجوج في القرآن والسنة

(١)

يأجوج ومأجوج في القرآن الكريم

جاء ذكر يأجوج ومأجوج في القرآن الكريم في موضعين اثنين، الأول في سورة الأنبياء، وهي سورة مكية، في قوله تعالى: {حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِي شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ} (الأنبياء 96-97).

وتتحدث هذه الآيات عن حدث جلل سيقع قبل قيام الساعة؛ وهو خروج يأجوج ومأجوج، والمعنى المباشر للآيات كما ورد في التفسير الميسر: «فإذا فُتِح سد يأجوج ومأجوج، وانطلقوا من مرتفعات الأرض وانتشروا في جنباتها مسرعين، دنا يوم القيامة وبدَتْ أهواله، فإذا أبصار الكفار مِن شدة الفزع مفتوحة لا تكاد تَطْرِف، يدعون على أنفسهم بالويل في حسرة: يا ويلنا قد كنا لاهين غافلين عن هذا اليوم وعن الإعداد له، وكنا بذلك ظالمين(2)».

وقد أورد القرطبي في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن(3)» أن كلمة «حدب» تعني ما ارتفع من الأرض»، أي قمم الجبال والهضاب، وهي مأخوذة من حدبة الظهر وحدبة البيضة، وتجمع على حداب. أما كلمة «ينسلون» فتعني السرعة والهرولة. والمعنى أنه إذا فُتحت يأجوج ومأجوج

أقبلوا مسرعين من فوق قمم الجبال. وقوله تعالى: «واقترب الوعد الحق»، هو جواب للشرط، والمعنى إذا فُتحت يأجوج ومأجوج اقترب الوعد الحق، أي يوم القيامة. ويقول ابن كثير إذا وقعت هذه الأهوال والزلازل والبلابل أزفت الساعة واقتربت(4).

وقيل في إعراب «فُتِحت يأجوج ومأجوج» قولان، الأول أن «فُتِحَ» فعل ماضٍ مبني للمجهول، والتاء للتأنيث، ويأجوج نائب فاعل، ومأجوج معطوف عليه. والثاني هو أن نائب الفاعل محذوف وتقديره «السد»، أي السد الذي بناه ذو القرنين، وتكون تاء التأنيث قد أُضيفت إلى الفعل لاكتساب «السد» صفة التأنيث من إضافته إلى «يأجوج» التي تُؤَّل على أنها أمَّة(5).

والآية في سورة الأنبياء لا يوجد فيها ما يدل عمومًا على من هم يأجوج ومأجوج، فلم تُفصِح عن صفاتهم أو أجناسهم، اللهم إلا هبوطهم من فوق قمم الجبال في سرعة، وأن خروجهم بتلك الكثافة يؤذن بقرب الساعة.

أما الموضع الثاني الذي ذُكر فيه «يأجوج ومأجوج» فهو سورة الكهف، في سياق قصة ذي القرنين، وهي سورة مكية أيضًا باتفاق أغلب العلماء، وقِيل إنها من أواخر السور المكية، وذهب البعض إلى أن الآيات التي وردت فيها قصة ذي القرنين آيات مدنية. وفي المصحف الذي بأيدينا (الطبعة المصرية)، نجد أن السورة كلها مكية إلا الآية رقم 3، والآيات من 83 إلى 101 فمدنية. وهذا يدل على أن آية سورة الأنبياء التي تتحدث عن يأجوج

ومأجوج أسبق في النزول من الآية التي وردت في قصة ذي القرنين. وقد أورد ابن كثير في أسباب نزول هذه الآيات عن ابن عباس -رضي الله عنه- أنه قال: بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمد، وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى أتيا المدينة، فسألوا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ووصفوا لهم أمره وبعض قوله، وقالا: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، قال: فقالوا لهم: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن، فهو نبي مرسل، وإلا، فرجل متقوّل، فتروا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان من أمرهم؟ فإنهم قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نَبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هو؟ فإن أخبركم بذلك، فهو نبي، فاتبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم...» إلى آخر الحديث.

فنزل قوله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ٨٣ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ٨٤ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ٨٥ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ٨٦ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ٨٧ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاء الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ٨٨ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ٨٩

حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ٩٠ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ٩١ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ٩٢ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلا ٩٣ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ٩٤ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ٩٥ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ٩٦ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ٩٧ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ٩٨ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ٩٩}

ويستدل من هذه الآيات على عدة أمور:

- أولًا: أن ذا القرنين كان عبدًا صالحًا، وأن الله قد مكن له في الأرض بسعة علمه، وقدرته على تحمل المشاق والصعاب، والأخذ بالأسباب في كل ما يعمل. ولم تحدد الآيات صاحب هذه الشخصية، ولا الزمن الذي عاش فيه، وكذلك لم يرد عن رسول الله ﷺ أحاديث صحيحة في هذا الشأن. وكل ما ورد في كتب التفاسير عن صاحب هذه الشخصية وعن سبب تسميته بهذا الاسم إنما هي محض آراء، قد تصيب أو تخطئ. فمن المفسرين من ذكر أنه الإسكندر المقدوني، ومنهم من ذكر أنه ملك من ملوك اليمن، ومنهم من ذكر أنه الملك الفارسي كورش. وكل هذه الآراء

يؤخذ عليها ويرد. وقد تعرضنا لها في هذا البحث تفصيلًا.

- ثانيًا: أن ذا القرنين قد قام برحلة إلى ناحية الغرب، وصل فيها إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب. يقول القرطبي «ليس المراد أنه انتهى إلى الشمس مغربًا أنه وصل إلى جرمها ومسها، بل المراد أنه انتهى إلى آخر العمارة من جهة الغرب». وفي هذه الرحلة شاهد ذو القرنين الشمس وهي تغرب في «عين حمئة» وقيل في صفوة التفاسير إنها عين ماء ساخنة (حامية)، وطين ساخن (حمأ). وذهب المفسرون إلى أن غروب الشمس في العين الحمئة إنما كان رؤية ومشاهدة، وليس حقيقة مثلما يرى المرء غروب الشمس في البَحر أو المحيط. يقول ابن كثير في تفسيره: «أنه رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله، يراها كأنها تغرب فيه».

وقد قابل ذو القرنين في رحلته تلك قومًا خيّره الله بين أن يعذبهم أو أن يعفو عنهم. قال تعالى: {قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا}، وكلمة «قلنا» تعني أن الأمر قد جاءه وحيًا أو إلهامًا. وأجاب ذو القرنين بقوله: {قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا}. ويرى بعض المفسرين أن إجابة ذي القرنين لم تكن ردًا على الوحي أو الإلهام الذي أتاه من رب العالمين، وإنما خطابًا ألقاه إلى أصحابه. وهذا يتفق مع سياق الآيات، فلو أن الله -سبحانه وتعالى- هو المُخاطَب في كلام ذي القرنين، لما صح أن يخاطب ذو القرنين ربه بنون التعظيم في قوله:

{فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ}، ولما صحَّ أن يكون الفاعل ضميرًا مستترًا في قوله: {يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا}.

- ثالثًا: أن ذا القرنين قد استأنف رحلته إلى اتجاه آخر وهو مطلع الشمس. يقول تعالى: {ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ٨٩ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ٩٠ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ٩١}.

يقول الإمام القرطبي: {ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا} أي سلك طريقًا ومنازل. {حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ}، أي المكان الذي تطلع عليه الشمس والمطلَع (بفتح اللام) والمطلِع (بكسر اللام) هو موضع طلوع الشمس، وقد اختلف الفقهاء في معنى قوله تعالى: {لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا}. قال الجوهري: المعنى أنه انتهى إلى موضع قوم لم يكن بينهم وبين مطلع الشمس أحد من الناس. وقال قتادة: أن ذا القرنين وجد الشمس تشرق على قوم ليس لهم من اللباس والبناء ما يسترهم من حرّها، وهؤلاء هم الزنج. وكل ما ورد في كتب التفسير عن حقيقة هذا الموضع، وعن هؤلاء القوم، إنما هو اجتهادات لكاتبيها. فلم يرد عن رسول الله ﷺ أحاديث يبين فيها أين وقعت أحداث هذه الرحلة، ومن هم القوم الذين غاب عنهم ستر الشمس.

- رابعًا: أن ذا القرنين بعد أن بلغ مطلع الشمس استأنف مسيره حتى انتهى إلى موضع يقال له: **«بين السدين»**، وهناك قابل قومًا لا يكادون يفقهون قولا. يقول تعالى: {ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ٩٢ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ

مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ٩٣}.

ويقول ابن كثير -رحمه الله- عن السدين: «هما جبلان عظيمان متناوحان بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك، فيعيثون فيها الفساد، ويهلكون الحرث والنسل». وذكر الإمام القرطبي -رحمه الله- عن بن عباس أن الجبلين هما جبلا أرمينيا وأذربيجان من ناحية بلاد الترك. ومثله قال الصابوني في صفوة التفاسير. ومرة أخرى نؤكد أنه لم يرد عن الرسول ﷺ، وصفًا أو تسمية لهذا المكان، وأن آراء الفقهاء في ذلك العصر هي محض اجتهاد، وربما قصدوا بهذه الثغرة ممر (زنغزور)، بين جبال القوقاز ومرتفعات الأناضول بين أرمينيا وأذربيجان، في إقليم كاراباخ المتنازع عليه بين الدولتين وبين تركيا أيضًا. وهي حاليًا أماكن مأهولة بالسكان وذات أغلبية مسلمة، ولا يعقل أن يكون هناك شعب محتجز خلف هذه الجبال، ولم يُستدل عليه حتى الآن.

وتخبرنا الآيات أن ذا القرنين بعد أن اجتاز بين السدين، وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا. يقول تعالى: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا}.

وقد قال الإمام القرطبي: «هم قوم لا يَفقَهون كلام غيرهم، ولا يُفقِهون غيرهم كلامهم». وقال الإمام الصابوني في صفوة التفاسير «لا يكادون يعرفون لسانا غير لسانهم إلا بمشقة وعسر».

(١) يأجوج ومأجوج في القرآن الكريم - صفحة 22/ 235

- خامسًا: أخبر هؤلاء القوم ذا القرنين بأمر يأجوج ومأجوج، وما كان من إفسادهم لمعيشتهم، وطلبوا منه أن يقيهم شرهم بأن يصنع بينهم وبين يأجوج ومأجوج سدًا مقابل مبلغ من المال. قال تعالى: {قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا}.

وقد وردت أقوال عدة فيمن هم يأجوج ومأجوج وسنذكرها لاحقًا، وقد اُختلِف في إفسادهم فذكر الإمام القرطبي: «قالت فرقة: إفسادهم هو الظلم والغَشْم والقتل وسائر وجوه الإفساد المعلومة من البشر، وقالت فرقة: إنما كان إفسادهم متوقعًا، أي أنهم سيفسدون، ولذا فقد طلبوا من ذي القرنين المعونة على سبيل التحرز فحسب».

والفساد عكس الصلاح، ومن معانيه في اللغة الجدب والقحط. ففي لسان العرب(6): فَسَّدَ الشيء، أي أباره وأهلكه. و«المفسد» هو المهلك. يقول تعالى: {وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ} (البقرة 205). وكذلك قوله تعالى: {ظهر الفساد في البر والبحر} (الروم 41)، أي الجدب في البر والقحط في البحر.

وقد وصف القوم الذين لا يكادون يفقهون قولا، يأجوجَ ومأجوجَ، بأنهم مفسدون في الأرض -أي مهلكون للحرث والنسل- لما علموه من أمرهم سابقًا، وطلبوا من ذي القرنين الوقاية من شرورهم.

- سادسًا: حينما طلب القوم الذين لا يكادون يفقهون قولا من ذي القرنين أن يحميهم من يأجوج ومأجوج، لم يطلبوا منه أن يقاتلهم أو يعذبهم، وإنما طلبوا منه أن يقيم لهم سدًا، ليحجزهما من ورائه، وليقيهم شرهما، وعرضوا عليه المال أجر صنيعه. يقول تعالى: {قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا}.

وقد استجاب ذو القرنين لطلبهم دون مقابل، ولكنه لم يبنِ سدًا، بل اقترح عليهم أن يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج ردما. {قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا}، ورغم تقارب المعنى بين كلمتي السد والردم، إلا أن هناك فارقًا دقيقًا بين الاثنين. فالسد كما ورد في معجم مقاييس اللغة(7) هو «كل حاجز بين شيئين»، وهذا بالضبط ما أراده القوم الذين لا يكادون يفقهون قولا، فقد طلبوا حاجزًا بينهم وبين يأجوج ومأجوج. أما الردم كما ورد في لسان العرب ومعجم مقاييس اللغة فهو «سد الثلمة»، أي «سد الفرجة» مثل ردم البئر وردم الحفرة من الأرض، وهذا ما صنعه ذو القرنين فعليًا. وقد يعلو الردم بعضه فوق بعض، حتى يصير حاجزًا مثل السد، وقد يتساوى بسطح الأرض، وقد يقل عنها.

وقد صنع ذو القرنين الردم من سبائك المعدن. فأحضر له القوم «زُبَر الحديد»، والزبر جمع زبرة، وهي القطعة منه {حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ} أي: وضع الحديد بعضه على بعض حتى حاذى به الجبلين، {قَالَ ٱنفُخُواْ} أي: أجج عليه النار حتى صار كله نارًا ثم {قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا}،

(1) يأجوج ومأجوج في القرآن الكريم - صفحه 24/ 235

والقِطر هو النحاس المذاب، وذكر آخرون أنه القصدير.

وخلط الحديد بالنحاس المذاب يعطي سبيكة البرونز الصلدة، وخلطه بالقصدير يعطي سبيكة الحديد المقاوم للصدأ. وفي كل الأحوال، فإن صنع هذه السبيكة، وبناء الردم بهذا الشكل، كان من نعم الله سبحانه وتعالى، التي أنعم بها على ذي القرنين ومن أسباب التمكين التي فضله الله بها، وذُكرت في مطلع السورة.

- سابعًا: لما فرغ ذو القرنين من بناء الردم حمد الله وأثنى عليه، ثم أخبر هؤلاء القوم بما سيكون من أمر هذا الردم في الأزمنة اللاحقة وعند قيام الساعة: {قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ٩٨ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ٩٩}. يقول الإمام الطبري في تفسيره جامع البيان(8): «جعله دكاء، أي سوّاه بالأرض».

وقيل في تفسير قوله تعالى: {وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ} أقوال عدة. يقول الإمام الطبري(9): «أي تركنا عبادنا يومئذ يختلط جِنّهم بإنسهم»، ويقول الإمام القرطبي(10): تركنا يأجوج ومأجوج يوم انفتاح السدّ يموجون في الدنيا مختلطين لكثرتهم».

والقول الثاني أقرب وأصح؛ لأن ضمير الغائب «هم» متعلق بالحديث عن يأجوج ومأجوج في الآيات التي تسبق هذه الآية. واستعارة الموج لهما دليل

(١) يأجوج ومأجوج في القرآن الكريم - صفحة 25/ 235

على الاضطراب واختلاط بعضهما في بعض، فشبههما بموج البحر الذي يضطرب بعضه في بعض.

وقال القرطبي في تفسير قوله تعالى: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا}، أي جمعنا الإنس والجن عند بدء أهوال القيامة. والأصح أن الضمير في «جمعناهم» يعود على يأجوج ومأجوج أيضًا، مما يدل على خروج يأجوج ومأجوج مرة أخرى مع النفخ في الصور وبدء أهوال القيامة، وسيأتي ذكر ذلك لاحقًا إن شاء الله.

وخلاصة هذا الفصل أن القرآن الكريم قد ذكر يأجوج ومأجوج في موضعين اثنين، الأول هو نبوءة عن حدثٍ جللٍ سيقع في آخر الزمان قبل قيام الساعة، وفيه سينسل يأجوج ومأجوج من فوق الجبال، في مشهدٍ مهيبٍ تشخص له الأبصار، ويذكِّر الكافرين بغفلتهم.

والثاني هو حدث تاريخي قديم وقع في سياق قصة ذي القرنين، الذي صنع ردما ليقي أهل قرية من القرى من خطر يأجوج ومأجوج. وفي كلا الموضعين لم يفسر لنا القرآن الكريم من هم يأجوج ومأجوج، ولم يصفهم إلا بالسرعة والاندفاع تارة، وبالإفساد والإهلاك تارة أخرى. وعليه سننتقل إلى ما ورد من أحاديث لنرى إن كان هناك وصف وشرح لماهية يأجوج ومأجوج.

(٢)

يأجوج ومأجوج في الحديث الشريف

ورد في كتب التراث الكثير من الأحاديث المغلوطة عن أشراط الساعة، وفتن آخر الزمان، ومنها عشرات الأحاديث عن يأجوج ومأجوج، والتي شكلت الصورة الذهنية التي ترسخت في أذهان العامة عن هذا الحدث على مدار قرون. وحين نصل في هذا البحث إلى فصل «جوج وماجوج» في التوراة، سنعرف كيف تسللت هذه الفكرة من العهد القديم إلى السنة النبوية، وجعلت من النبوءة التوراتية في سفر حزقيال، تفسيرًا ليأجوج ومأجوج في القرآن الكريم، رغم التباين الشديد بين القصتين. وقد ذهب الشيخ محمد رشيد رضا(11)، صاحب تفسير المنار إلى أن «جميع أحاديث أشراط الساعة من الأحاديث المُشكِلة، وأن فيها مخالفة للعقل والحس والسنن الكونية والإلهية، مما يوجب ردها وعدم الاعتقاد بها، وأن فيها من التعارض والتناقض ما يوجب تساقطها(12)»، ثم تابع «بمثل هذه الخرافات كان كعب الأحبار يغش المسلمين ليفسد عليهم دينهم وسُنتهم، وخُدِع به الناس لإظهاره التقوى ولا حول ولا قوة إلا بالله(13)».

ومن بين عشرات الأحاديث المتداولة عن يأجوج ومأجوج، نجد أن الإمام البخاري -رحمه الله- أورد في صحيحه ثلاثة أحاديث فقط، وروى الإمام مسلم -رحمه الله- في صحيحه أربعة أحاديث فقط، بينما اتفق الشيخان

(البخاري ومسلم) على حديثين اثنين فقط. وقد قسَّم علماء الحديثِ الحديث الصحيح إلى سبع مراتب؛ أعلاها ما اتفق عليه البخاري ومسلم، ثم ما انفرد به البخاري، ثم ما انفرد به مسلم، ثم ما كان على شرطهما ولم يخرجاه، ثم ما كان على شرط البخاري ولم يخرجه، ثم ما كان على شرط مسلم ولم يخرجه، ثم أدناها ما صح عند غيرهما من الأئمة مما لا يكون على شرطهما. وقال الإمام السيوطي -رحمه الله- في كتابه «تدريب الراوي»: «وإذا قالوا صحيح متفق عليه أو على صحته، فمرادهم اتفاق الشيخين».

وقد اعتمدنا في هذه الدراسة على ما اتفق عليه الشيخان من أحاديث وردت في شأن يأجوج ومأجوج. أما باقي الأحاديث في البخاري ومسلم، التي تحدثت عن يأجوج ومأجوج فقد ذكرناها من باب استكمال المعلومة ولمن أراد أن يستزيد.

ما اتفق عليه الشيخانِ من الأحاديث:

1 - حديث «ويل للعرب»:

عن أم المؤمنين زينب بنت جحش -رضي الله عنها- قالت: خرج رسول الله ﷺ يومًا فزعًا، محمرًا وجهه، يقول: «لا إله إلا الله. ويل للعرب من شر قد اقترب. فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه»، وحلق بإصبعه الإبهام، والتي تليها. قالت فقلت: يا رسول الله! أنهلك وفينا الصالحون؟

قال: «نعم. إذا كثر الخبث».

شرح الحديث:

تروي السيدة زينب بنت جحش أن رسول الله ﷺ خرج عليها فزعًا، وقد يكون لرؤيا رآها في المنام كما ورد في رواية أخرى، وقال: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب». وكلمة ويل: تعبير يعني حلول الشر أو الهلاك. وقد قال ابن حجر العسقلاني في كتاب «فتح الباري» شرح صحيح البخاري: «إنما خص العرب بالذكر لأنهم أول من دخل في الإسلام، وللإنذار بأن الفتن إذا وقعت كان الهلاك أسرع إليهم». وذهب بعض الشراح إلى أن المراد بالشر هو وقوع الفتن على وجه العموم، ولكن ظاهر الحديث ينص على أن الشر الذي قصده رسول الله ﷺ هو حدوث فتحة في ردم يأجوج ومأجوج بمقدار الحلقة بين إصبعي السبابة والإبهام، وهو ما أبانه في قوله: «لقد فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلق بإصبعه الإبهام، والتي تليها».

وقوله: **«قد اقترب»**، فسرها شراح الحديث بأنها لا تعني وقتًا محددًا وقالوا: «الاقتراب وقرب الشيء أمر نسبي، ومن المعلوم أن انهيار الردم وخروج يأجوج ومأجوج من أحداث آخر الزمان التي ستحدث بعد نزول المسيح».

ثم قالت أم المؤمنين -رضي الله عنها- لما رأت من الرسول ما رأت

وسمعت منه ما قال: «**أنهلك وفينا الصالحون؟**» أي كيف نهلك والصالحون بيننا قال: «**نعم إذا كثر الخَبَث**». وقيل إن المراد بالخبث، الخبث المعنوي مثل الكفر والمعاصي والذنوب وأنواع الفجور وغيرها.

2 - حديث «بعث النار»:

عن أبي سعيد الخدري -**رضي الله** عنه- قال، قال رسول الله ﷺ يقول الله عز وجل: يا آدم! فيقول: لبيك! وسعديك! والخير في يديك! قال يقول: أخرج بعث النار. قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين. قال فذاك حين يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد. قال فاشتد ذلك عليهم. قالوا: يا رسول الله! أينا ذلك الرجل؟ فقال: أبشروا. فإن من يأجوج ومأجوج ألفا. ومنكم رجل. قال ثم قال: والذي نفسي بيده! إني لأطمع أن تكونوا ربع أهل الجنة. فحمدنا الله وكبرنا. ثم قال: والذي نفسي بيده! إني لأطمع أن تكونوا ثلث أهل الجنة. فحمدنا الله وكبرنا. ثم قال: والذي نفسي بيده! إني لأطمع أن تكونوا شطر أهل الجنة. إن مثلكم في الأمم كمثل الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود.

وقد روى البخاري -رحمه الله- رواية أخرى لهذا الحديث لم يذكر فيها يأجوج ومأجوج: فعن أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: أَوَّلُ مَنْ يُدْعَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ آدَمُ، فَتَرَاءَى ذُرِّيَّتُهُ، فَيُقَالُ: هَذَا أَبُوكُمْ آدَمُ. فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ جَهَنَّمَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، كَمْ أُخْرِجُ؟ فَيَقُولُ: أَخْرِجْ

مِنْ كُلِّ مِائَةٍ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ. فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذَا أُخِذَ مِنَّا مِنْ كُلِّ مِائَةٍ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ فَمَاذَا يَبْقَى مِنَّا؟ قَالَ: إِنَّ أُمَّتِي فِي الأُمَمِ كَالشَّعَرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي الثَّوْرِ الأَسْوَد.

ويُلاحظ التناقض في نسبة أهل الجنة إلى أهل النار من بني آدم في كلتا الروايتين. فحديث أبي سعيد يدل على أن نصيب أهل الجنة من كل ألف واحد، وحديث أبي هريرة يدل على أن نصيب أهل الجنة من كل ألف عشرة. وقد قيل في ذلك: «إن مفهوم العدد لا اعتبار له؛ فالتخصيص بعدد لا يدل على نفي الزائد، والمقصود من العددين واحد وهو تقليل عدد المؤمنين وتكثير عدد الكافرين». وقد يُحمل حديث أبي سعيد على أن بعث النار فيه يشمل أهل النار من ذرية آدم مضافًا إليهم يأجوج ومأجوج، فيكون من كل ألف واحد، ويحمل حديث أبي هريرة على أن بعث النار فيه من ذرية آدم فقط، من دون يأجوج ومأجوج. وهذا أقرب للصحة لدرء التناقض في العدد.

وعلى أية حال، فقد قدَّم البعض رواية أبي هريرة على رواية أبي سعيد الخدري؛ لأنها تحتوي على زيادة. يقول بن حجر العسقلاني في فتح الباري: «ومقتضى بعض الكلام تقديم حديث أبي هريرة على حديث أبي سعيد، فإنه يشتمل على زيادة، فإن حديث أبي سعيد يدل على أن نصيب أهل الجنة من كل ألف واحد، وحديث أبي هريرة يدل على عشرة، فالحكم للزائد».

وقد ذهب البعض إلى أن المقصود بقوله: (بعث النار) المبعوثين إلى

النار من الكفرة والجاحدين، وقد يقصد به أيضًا كل ما يلقى في النار ليؤجج نيرانها. ففي المعجم الوسيط «البَعْث» هو الإحياء، أو الإيقاظ، وأنا أميل إلى المعنى الثاني، والدليل على ذلك أن الرواية الأولى لأبي سعيد الخدري تتحدث عن «بعث النار» في مجمله، أي من ذرية آدم ومن غيرها، ولهذا حين قال الله عز وجل: «أخرج بعث النار» كان الاستفسار من آدم بقوله: «وما بعث النار؟»، و«ما» يستفهم بها عن غير العاقل. أما في رواية أبي هريرة، فقد قيل له: «أخرج بعث جهنم من ذريتك»، ولهذا كان رد آدم واضحًا، فقال «كم أخرج؟»، ولم يذكر فيها يأجوج ومأجوج. ومقارنة الروايتين توضح أن يأجوج ومأجوج من بعث النار، ولكن ليس شرطًا أن يكونا من ذرية آدم. وقد يتساءل أحدنا وهل في النار أشياء أخرى غير البشر؟ والإجابة نعم. فالنار بها الحجارة، يقول تعالى: {فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}، وفيها الأصنام والأوثان وكل ما يُعبد من دون الله، يقول تعالى: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ}. وفيها كذلك المهل: يقول تعالى: {كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ}، وقيل المهل هو النحاس المذاب، وقيل القطران وقيل القيح والصديد، وقيل اسم جامع لما ذاب من الحديد والفضة والنحاس ونحوه. وفيها شجرة الزقوم، يقول تعالى: {إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ}. وفيها ماء حميم، يقول تعالى: {وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ}. والغاية أن «بعث النار» هو وصف عام لكل ما يؤجج النار يوم القيامة.

وخلاصة القول في الأحاديث المتفق عليها أن الرسول ﷺ لم يبين لنا من هم يأجوج، ولم يصفهم، ولم يبين لنا ما جنسهم.

وعلى هذا نبدأ في الفصل التالي بحثنا عن يأجوج ومأجوج.

الفصل الثاني

البحث عن يأجوج ومأجوج

(١)

البحث عن المكان

حينما نتدبر آيات سورة الكهف، قد نتساءل أين وقعت أحداث تلك القصة؟ وأين علم ذو القرنين بأمر يأجوج ومأجوج؟

وهذان السؤالان هما موضوع هذا الفصل من البحث. يقول تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ٩٠ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ٩١ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ٩٢ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ٩٣ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ٩٤}

علم ذو القرنين بأمر يأجوج ومأجوج بعد أن اتجه إلى مكان وصفته آيات القرآن الكريم بأنه «مَطْلِعَ الشَّمْسِ»، وأن الشمس لا يوجد لها في هذا المكان ستر يحجبها عن الناس. وقد ذهب العديد من المفسرين إلى أن ذا القرنين بعد أن فرغ من رحلته في الغرب، اتجه إلى الشرق، حتى وصل إلى أقصى الشرق من الأرض المعمورة وقتها. وفسر الكثيرون منهم قول الله عز وجلّ «مَطْلِعَ الشَّمْسِ» بأنه يعني موضع طلوع الشمس أي مشرق الشمس. وقيل في تفسير قوله تعالى: {لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا} بأنهم أول من تطلع عليهم الشمس. وقال آخرون أن غياب الستر يعني أنهم كانوا قومًا

بدائيين لم يكن لهم جبل ولا شجر ولا شيء يسترهم عن الشمس. وذكر بعضهم أنهم كانوا قومًا حفاةً عراة يفْترش أحدُهم أُذُنَهُ ويلْبس الأُخرى -أي ينام على إحدى أذنيه ويلتحف بالأخرى- كناية عن شدة التجرد وغياب الستر. وقد ذكرنا في الفصل الأول أقوال المفسرين في ذلك.

والرأي الراجح أن ذا القرنين لم يتجه إلى المشرق في هذا الجزء من الرحلة. وأن مطلع الشمس هو موضع آخر غير موضع شروق الشمس. والدليل على ذلك أن رحلة ذي القرنين الأولى إلى الغرب قال عنها المولى عز وجل: {حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ}، فلو كانت هذه الرحلة إلى الشرق، لكان الأولى أن توصف بمشرق الشمس بدلًا من مطلع الشمس. وكما ذكرنا سابقًا، فإن كلمة «مطلع» تعني الموضع الذي تطلع عليه الشمس وليس منه. وعلى هذا فإن ذا القرنين قد وصل إلى مكان تطلع عليه الشمس، وقد غاب عنها سترها. وستر الشمس هو الليل، أي أنه قد ذهب إلى موضع تطلع عليه الشمس بصورة شبه دائمة. مكان لا يوجد فيه شروق وغروب، وتعاقب للّيل والنهار في هيئتهما المعتادة، بل تظل الشمس فيه طالعة لا يحجبها ليل أو «سِتر» عن الأرض. وقد أشار الشيخ محمد متولي الشعراوي إلى هذا المعنى فقال -رحمه الله-: «وبعض المفسرين يرون أن ذا القرنين ذهب إلى موضع يومه ثلاثة أشهر، أو نهاره ستة أشهر، فصادف وصوله وجود الشمس، فلم ير لها غروبًا في هذا المكان طيلة وجوده به، ولم ير سترًا يسترها عنهم».

2575565132

والسؤال الآن: ما المكان الذي يحمل تلك المواصفات؟

إن مثل هذا الاختلاف في تعاقب الليل والنهار نجده عند الدائرة القطبية الشمالية أو الجنوبية. فمن المعلوم أن تعاقب الليل والنهار هو النتيجة المباشرة لكروية الأرض ولدورانها حول محورها أمام الشمس مرة واحدة كل يوم. ويرجع التباين الذي نعرفه في طول الليل والنهار إلى ميل محور الأرض على مستوى مدارها، مما يؤدي إلى سقوط أشعة الشمس بصورة مائلة على جميع خطوط العرض، فيما عدا منطقة خط الاستواء، حيث تكون أشعة الشمس عمودية؛ مما يؤدي إلى تساوي الليل والنهار طوال العام. شكل (1)

ويتزايد الفرق بين الليل والنهار تدريجيًا كلما بعدنا عن خط الاستواء نحو القطبين. ففي يوم الانقلاب الصيفي مثلًا يكون طول النهار عند خط الاستواء 12 ساعة، ثم يزيد إلى 15 ساعة عند خط عرض 40° شمالًا، و20 ساعة عند خط عرض 63°، و24 ساعة عند الدائرة القطبية، أي يكون هذا اليوم كله نهارًا عند حدود الدائرة القطبية. ثم يتزايد عدد الأيام التي تكون كلها نهارًا حتى تصل إلى شهر كامل عند خط عرض 67°، وأربعة أشهر عند خط عرض 68°، ثم ستة أشهر عند مركز القطب الشمالي، حيث يكون القطب الشمالي في أقرب وضع له إلى الشمس، ويدور هو والمنطقة المحيطة به باستمرار في ضوء الشمس، بينما يكون القطب الجنوبي في أبعد وضع له عنها، فيدور هو والمنطقة المحيطة به باستمرار في المنطقة

التي لا تصلها أشعة الشمس طوال الستة أشهر، ويحدث عكس ذلك تمامًا في فصل الشتاء. ومما سبق يتضح أن ذا القرنين قد توجه إلى إحدى المناطق التي تقع في نطاق الدائرة القطبية في وقتٍ كانت الشمس فيه موجودة طوال الوقت، حيث يوجد نهار دائم لا يعقبه ليل يستر الشمس. وبما أن أقل مدة لوجود نهار دائم هي 24 ساعة، وذلك عند حدود الدائرة القطبية، وبما أن هذه المدة تتزايد كلما اتجهنا نحو الشمال، حتى تصل إلى ستة أشهر عند نقطة القطب، وحيث إن الحملة التي قام بها ذو القرنين في هذه الأرض قد شهدت أحداثًا كثيرة منها إقامة السد، إذن فإنه من المنطقي أن نفترض أن ذا القرنين قد قطع مسافة كبيرة داخل نطاق الدائرة القطبية، حتى يتسنى له رؤية الشمس الساطعة طوال فترة حملته على هذه المنطقة، وإلا حدث اختفاء للشمس في أثناء حملته، ودخلت هذه المنطقة حينها في ليل دائم لمدة طويلة.

جميع الحقوق محفوظة لقناة رَقَش

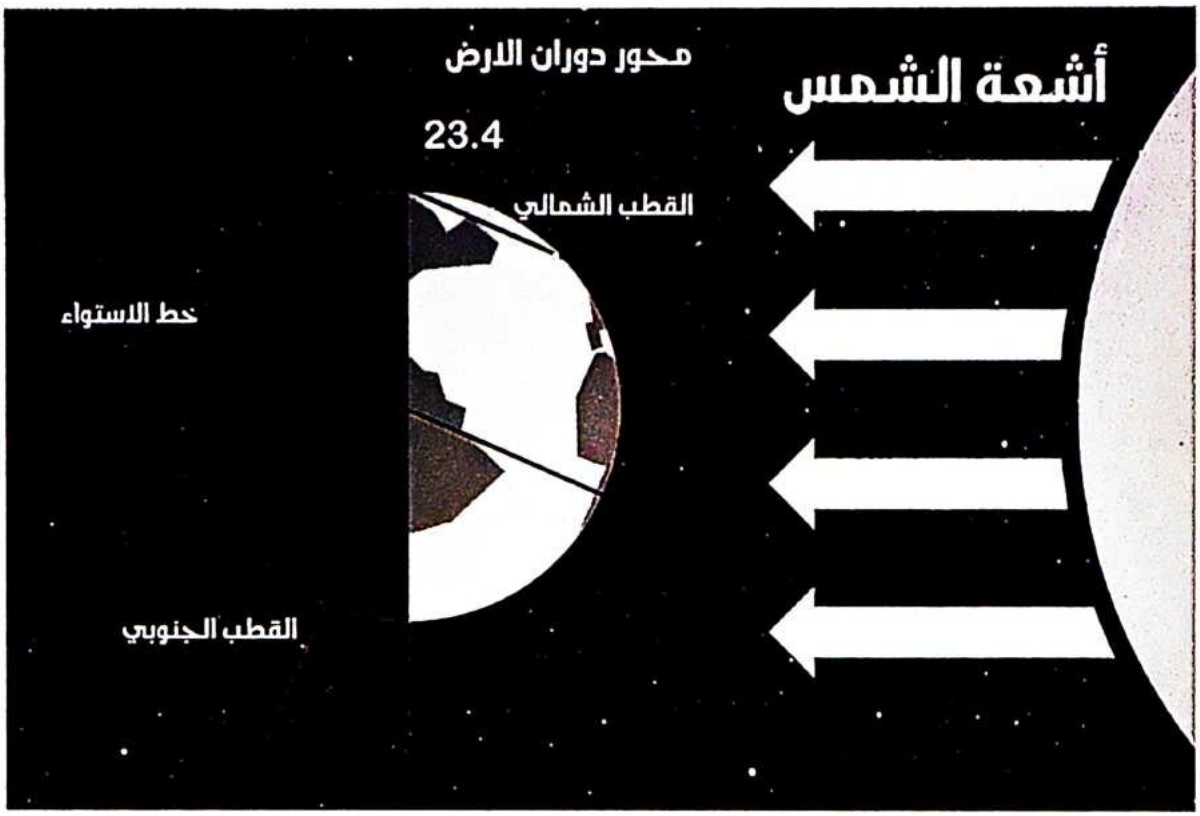

شكل (1) يوضح الشكل تأثير ميل محور الأرض على اختلاف طول الليل والنهار طبقًا لخطوط العرض. وعند خط الاستواء يتساوى طول الليل والنهار طوال العام. أما عند القطبيتين، فيستمر النهار ستة أشهر، والليل ستة أشهر

وتجدر الإشارة هنا إلى الدقة اللفظية في القرآن الكريم حينما استخدم الفعل «تطلع» بدلًا من «تشرق»، حيث إن الأول أنسب لوصف الشمس حينما تعلو السماء، وهذا بالفعل ما يحدث عند الدائرة القطبية حيث تتوسط الشمس السماء دون اتجاه إلى الشرق أو الغرب. وكذا الدقة اللفظية في كلمة «مَطلِع» -بكسر اللام- والتي تعني كما ورد في لسان العرب المكان الذي تطلع «عليه» الشمس، وليس منه. ومن المفارقات في الفعل «طلع» أنه يتغير معناه بدخول حرف الجر عليه. ففي معجم لسان العرب يقال: طلع

الشيء على فلان: أي تمت رؤيته، وطلع عنه أي غاب عنه. فالفعل نفسه قد يُستخدم للتعبير عن الظهور أو الغياب. وهذا يتفق مع ما يحدث عند التغيير الفصلي عند القطبين؛ حيث تختفي الشمس من نفس موضع ظهورها.

وبسبب تشابه الخصائص الفلكية لكل من المنطقة القطبية الشمالية والمنطقة القطبية الجنوبية، قد نتساءل إلى أي المنطقتين كانت رحلة ذي القرنين؟ والإجابة بالطبع إلى جهة الشمال. فالقارة القطبية الجنوبية من أشد الأماكن برودة على سطح الأرض، حيث يصل متوسط درجة الحرارة بها 89 درجة تحت الصفر، ويصفها العلماء بأنها صحراء متجمدة، ولا يوجد بها سكان مقيمون باستثناء عدد من الباحثين الذين يفدون على محطات الأبحاث المقامة هناك. ومنذ اكتشاف هذه القارة عام 1675، لم يجد العلماء أي آثار لشعوب بدائية في هذه المنطقة (أنتاركتيكا). شكل (2)

أما الدائرة القطبية الشمالية، فتبدأ عند خط عرض 66.33 شمال خط الاستواء، وتختلف المنطقة القطبية الشمالية عن الجنوبية في أن اليابسة تنتشر على الأطراف -حيث درجة الحرارة الأقل- في حين يتمركز المحيط القطبي الشمالي في المنتصف. ويساعد وجود المحيط القطبي في المنتصف على تخفيف شدة البرودة في المنطقة القطبية الشمالية، حيث إنه من المعروف أن المياه تحتفظ بالحرارة لفترات أطول من اليابسة، ولذا فإن القطب الشمالي أخف برودة من القطب الجنوبي، وتتراوح الحرارة فيه ما

بين 40 درجة تحت الصفر في فصل الشتاء، و10 درجات في فصل الصيف. وتعود حفريات الإنسان التي وجدت في القطب الشمالي نفسه إلى أكثر من 2500 سنة قبل الميلاد، أما حضارات الشعوب في المنطقة القطبية الشمالية، فتعود إلى ما قبل ذلك بآلاف السنين.

شكل (2) الدائرة القطبية الجنوبية حيث تشغل القارة القطبية أغلب المساحة

ويعيش الكثير من الشعوب في هذه المنطقة الآن، حيث تمر الدائرة

القطبية الشمالية بثمان دول هم؛ شمال النرويج، شمال السويد، شمال فنلندا، شمال روسيا (سيبريا)، ألاسكا (الولايات المتحدة الأمريكية)، شمال كندا، جزيرة جرينلاند (التابعة للدنمارك)، وأخيرًا أيسلندا. ومن الخصائص الجغرافية لمنطقة القطب الشمالي أن الشرق والغرب يتقاربان حتى يصلا إلى أقصر مسافة بينهما عند «مضيق بيرنج» الذي يفصل سيبريا (أقصى الشمال الشرقي) وألاسكا (أقصى الشمال الغربي). شكل (3)

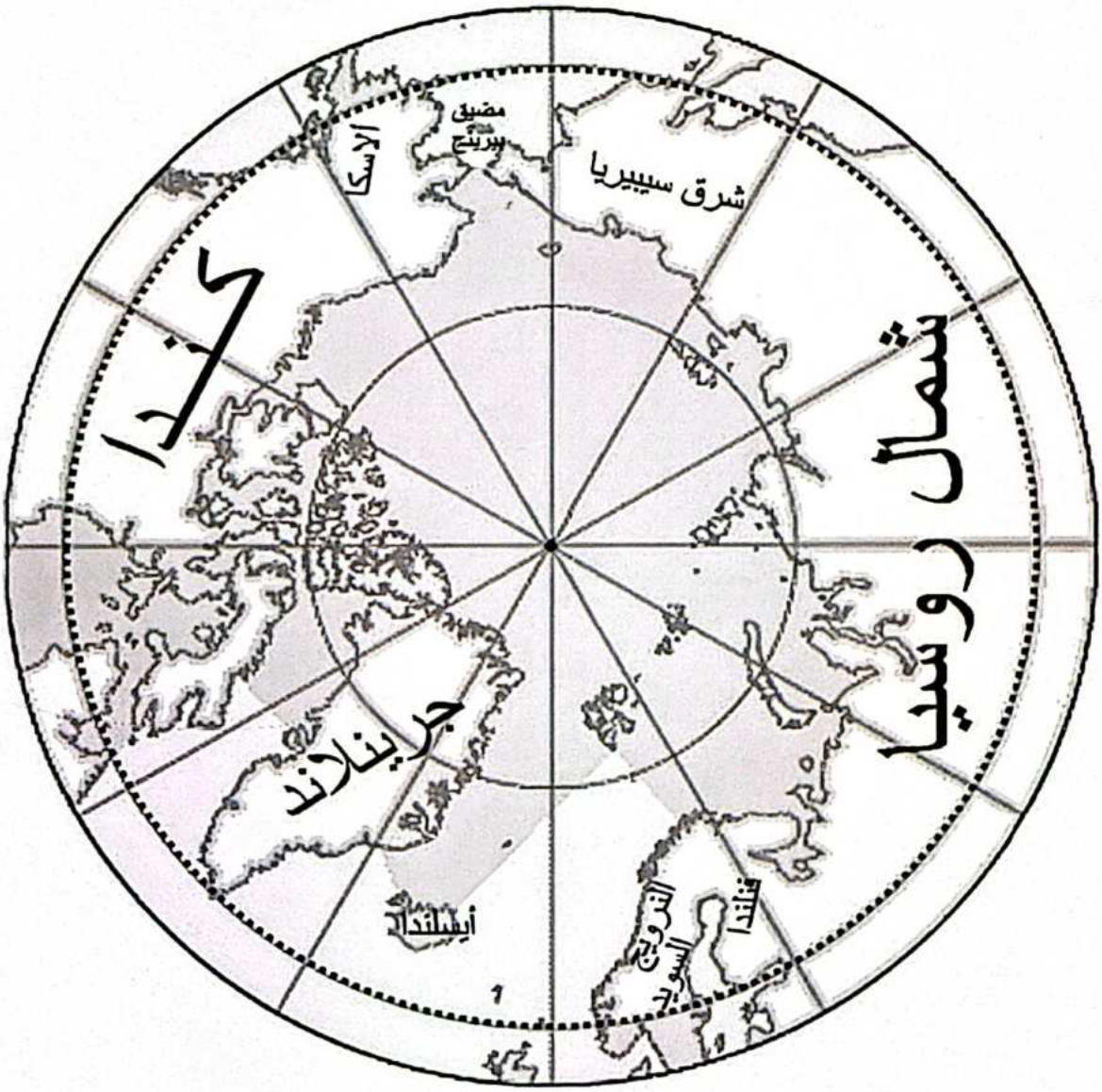

شكل (3) الأراضي اليابسة في الدائرة القطبية الشمالية

ويبلغ اتساع هذا المضيق حوالي 89 كيلومترًا فقط، وهي مسافة تقطعها السفينة الشراعية في ساعتين. ويبلغ عمقه حوالي 40 مترًا فقط، ويوجد بين الساحلين الشرقي والغربي للمضيق سلسلة من الجزر المعروفة باسم «جزر دايوميد»، وأكبر هذه الجزر جزيرة تسمى «جزيرة الغد»، وتوجد نحو الشرق، ولذا فهي تتبع روسيا، أما أصغرها فتسمى «جزيرة الأمس»، وتوجد نحو الغرب وتتبع الولايات المتحدة. والفارق الزمني في التوقيت بين الجزيرتين 20 ساعة، أي ما يقرب من يوم كامل، رغم أن المسافة بينهما تقل عن أربعة كيلومترات!

وقديمًا كان مستوى المياه في المحيط أكثر انخفاضًا، وكان قاع المضيق يمثل جسرًا بريًا بين القارتين الآسيوية والأمريكية. وعلى أرض هذا الجسر عبرت القبائل الآسيوية القديمة إلى شمال كندا ليصبحوا بعد ذلك أسلاف الهنود الحمر (السكان الأصليين للأمريكتين). وهذا يفسر لنا لماذا تبدو ملامح الهنود الحمر آسيوية. ومع ازدياد درجة حرارة الأرض، وزيادة الذوبان الجليدي ارتفع مستوى مياه المحيط حتى غمرت مياهه أرض المضيق، ولم يتبقَ من اليابسة سوى بعض المرتفعات التي كوّنت «جزر دايوميد» فيما بعد. وعلى هذا فإن التنقل بين الشرق والغرب كان أمرًا ميسرًا في نطاق المنطقة القطبية الشمالية، مما يرجح وجود ذي القرنين في هذه المنطقة آنذاك.

ويتضح مما سبق أن رحلة ذي القرنين نحو مطلع الشمس كانت في أغلب

الظن إلى اتجاه الشمال نحو الدائرة القطبية الشمالية. حيث تنطبق على هذا المكان المواصفات الجغرافية والفلكية التي اُسْتُنْبِطَت من تفسير الآية الكريمة. ولا يمكن تخيل اتجاه الرحلة إلى القطب الجنوبي، رغم تشابه الخصائص الفلكية، نظرًا لقسوة المناخ وعدم وجود مظاهر للحياة الإنسانية منذ قديم الأزل كما سبق وأوضحنا.

وقد أيَّد هذا الاعتقاد علماء الجغرافيا المسلمون في القرن العاشر الميلادي؛ ففي خريطة العالم التي رسمها الجغرافي المسلم محمد بن حوقل عام 997 ميلاديًا، نجده قد أشار في شمال الخريطة إلى أرض أطلق عليها «نواحي يأجوج ومأجوج». شكل (4)

(1) البحث عن المكان - صفحة 44 / 235

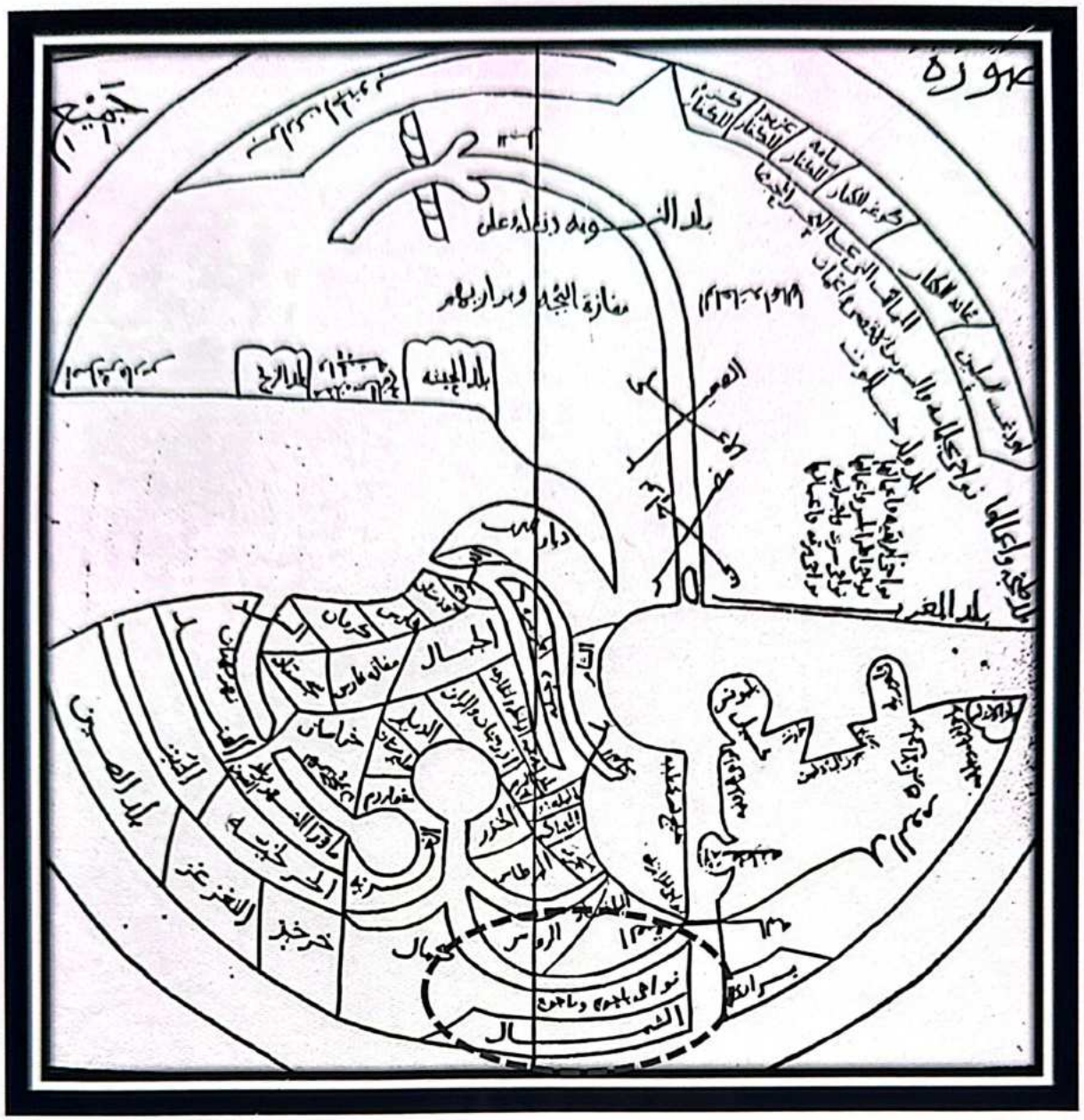

شكل (4) خريطة محمد أبو القاسم بن حوقل للأرض المعمورة، لاحظ أن اتجاه الشمال إلى أسفل الخريطة. وتشير الدائرة إلى موقع يأجوج ومأجوج كما حددها بن حوقل

الشيء نفسه نجده في خريطة «الشريف الإدريسي»، العالم الأندلسي المسلم الشهير (1100-1166 م)، الذي رسم خريطة عملاقة للعالم القديم أهداها إلى ملك صقلية «روجر الثاني»، واستغرق في رسمها 15 عامًا، وفيها أشار بوضوح إلى أرض يأجوج ومأجوج في الشمال. شكل (5)

شكل (5) خريطة الشريف الإدريسي للأرض المعمورة. لاحظ أن اتجاه الشمال إلى أسفل الصورة، ويشير المربع الكبير إلى أرض يأجوج ومأجوج في أقصى الشمال والمربع الصغير إلى سد ذي القرنين

والشيء نفسه أخذ به الرحالة والعالم الجغرافي العباسي الشهير «ياقوت الحموي» (1178-1225م) في كتابه المعروف «معجم البلدان»، حيث قسم الأرض المعمورة إلى سبعة أقاليم، وأطلق على الإقليم السادس الذي يقع

إلى الشمال اسم «إقليم يأجوج».

ومن الطريف أن العلماء الأوربيين الذين رسموا خريطة الأرض في القرون الوسطى، أطلقوا على أرض الشمال اسم يأجوج ومأجوج تأثرًا بما نقلوه عن العلماء العرب. فنجد المؤرخ والجغرافي الشهير «جيوفاني دي روسي»، والذي رسم خريطة قارة آسيا في القرن السادس عشر الميلادي، قد أطلق على أرض أقصى الشمال (سيبريا الآن) اسم أرض مأجوج. شكل (6)

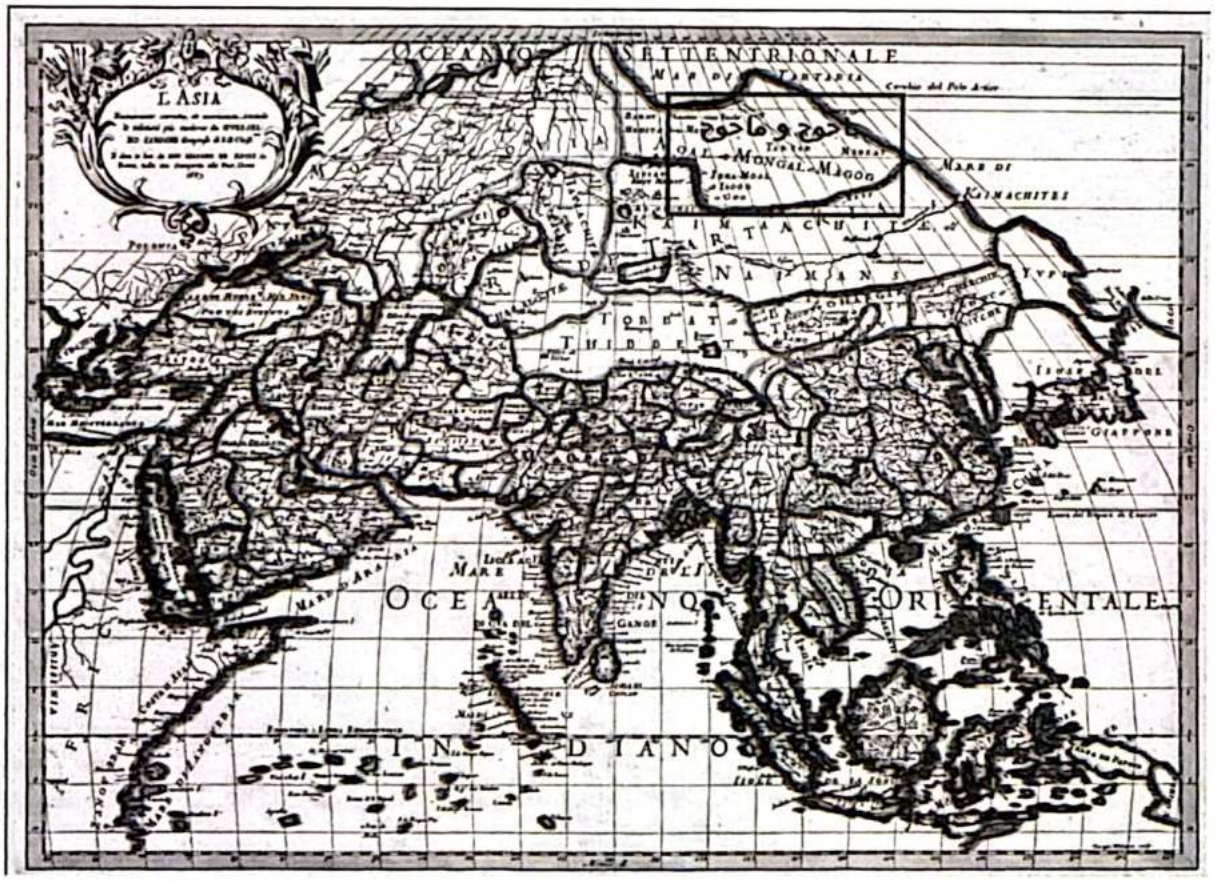

شكل (6) خريطة «جيوفاني دي روسي» لقارة آسيا، ويوضح المربع في أقصى الشمال الشرقي (سيبريا الآن) إلى أرض مأجوج «Magog»

وقد ذهب إلى هذا الرأي أيضًا بعض المفسرين والمفكرين المعاصرين. فكما سبق وذكرنا أن الشيخ الشعراوي -رحمه الله- قد قال في تفسيره إن

بعض المفسرين أشاروا إلى ذلك، فقال: «وبعض المفسرين يرون أن ذا القرنين ذهب إلى موضع يومه ثلاثة أشهر، أو نهاره ستة أشهر، فصادف وصوله وجود الشمس، فلم ير لها غروبًا في هذا المكان طيلة وجوده به، ولم يرَ سترًا يسترها عنهم»، وأضاف -رحمه الله-: «ويبدو أنه قد ذهب إلى الشمال»، وذكر هذا التفسير أيضًا المفكر الإسلامي الجليل الدكتور مصطفى محمود -رحمه الله- في برنامجه الشهير «العلم والإيمان» في حلقاته عن «شمس منتصف الليل».

ونخلص في نهاية هذا الجزء من البحث إلى أن أرض يأجوج ومأجوج هي أرض تقع في نطاق الدائرة القطبية الشمالية. ويدفعنا هذا إلى سؤالين، وهما: في أي مكان في المنطقة القطبية الشمالية انتهت رحلة ذي القرنين؟ وما علاقة المقيمين في هذا المكان بيأجوج ومأجوج؟ هذا ما سنعرفه حينما نبحث عن جيران يأجوج ومأجوج الذين قالوا له: {إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا}.

(٢)

البحث عن الجيران

يقول تعالى: {ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ٨٩ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ٩٠ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ٩١ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ٩٢ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ٩٣}.

تذكر الآيات أن ذا القرنين بعد أن وصل إلى أرض مطلع الشمس، وهي أرض ما في المنطقة القطبية الشمالية، سلك طريقًا في هذه الأرض إلى أن وجد قومًا لا يكادون يفقهون قولا. وقال كثير من المفسرين في معنى {لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا} إن هؤلاء القوم كانوا يتحدثون لغة غريبة لا يفهمها غيرهم إذا تحدثوا، ولا يفهمون كلام غيرهم إذا حادثوهم. وقرأ حمزة والكسائي «يَفْقَهُونَ» بضم الياء وكسر القاف من أفقه إذا أبان، أي لا يُفقِهون غيرهم كلامًا. وقرأ الباقون بفتح الياء والقاف، أي يَعلمون. والقراءتان صحيحتان، فلا هم يَفقَهون من غيرهم، ولا يُفقِهون غيرهم. وهذا التفسير، وإن كان منطقيًا، إلا أنه لا يعبر عن دلالة تسمية هؤلاء القوم بهذا الاسم، لا سيما وأن الآيات التالية تحمل دلالة قاطعة على أن التواصل والتفاهم قد حدث بين الطرفين بالقول، وليس بشيء آخر. فقد «قالوا» له إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض، وعرضوا عليه مالًا مقابل السد، ورد

عليهم أنه ليس بحاجة إلى مالهم، واقترح بناء الردم، ثم طلب المعونة في البناء، وذكر علة بقاء السد، إلى آخر الحوار الذي يدل على أن التواصل والتفاهم لم يكن عائقًا كبيرًا يستدعي تأكيد القرآن على كونهم {لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا}.

وقد حاول المفسرون إزالة هذا التعارض الظاهري بين قول الله عز وجل {لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا}، وبين التواصل والتفاهم الذي حدث في الآيات اللاحقة، فذكر بعضهم أن هذا من أسباب التمكين التي أوتيت لذي القرنين، فيجوز أن يكون الرجل على دراية بلغات عدة منها لغة هؤلاء القوم. وذكر آخرون أنه استعان بالمترجمين في رحلته، وذكر الشيخ الشعراوي -رحمه الله- أنه يمكن أن يكون قد تواصل معهم بلغة الإشارة.

ولما كان القرآن الكريم يفسر بعضه بعضًا، كان الأولى والراجح أن يحمل ما جاء في قوله: {لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا} على أنه كناية عن اسم القبيلة أو الشعب الذي قابله ذو القرنين في المنطقة القطبية الشمالية. والدليل على ذلك ما توصلنا إليه حينما بحثنا في أصل تسمية القبائل التي تقطن المنطقة القطبية الشمالية منذ آلاف السنين.

فنطالع في الموسوعة البريطانية أن السكان الأصليين للمنطقة القطبية الشمالية تنحدر أصولهم جميعًا من قبائل «الإسكيمو». وهذه القبائل التي استوطنت تلك المنطقة منذ آلاف السنين، قد تنقلت من مكان إلى مكان داخل القطب الشمالي هربًا من الصقيع وبحثًا عن الرزق. ولذا نجد أن

الكثير من سكان شمال روسيا وسيبريا وألاسكا وكندا وجزر أيسلندا وجرينلاند تنحدر أصولهم من قبائل «الإسكيمو».

وفي عصرنا الحالي ينقسم شعب الإسكيمو إلى مجموعتين أساسيتين: الأولى تسمى الإينوت «Inuit»، وتستقر في الشمال من ألاسكا وكندا وجرينلاند، والثانية تسمى اليوبيك «Yupik» وتستقر في شرق سيبيريا وخليج ألاسكا.

ويرجح علماء الأنثروبولوجي -علم دراسة الإنسان- أن الأصل في قبائل الإسكيمو هم قبائل اليوبيك الموجودة في شرق سيبيريا، حيث إن أقدم حضارات الإسكيمو قد وُجدت في هذا المكان قبل خمسة آلاف عام. وقد وُجدت حفريات بشرية في منطقة شرق سيبيريا تعود إلى أكثر من 18 ألف عام، وانتمت هذه الحفريات في خصائصها الجينية إلى قبائل الإسكيمو. ودليل آخر يرجح أن يكون منشأ الإسكيمو هو قبائل شمال شرق آسيا (سيبيريا)، وهو تشابه الصفات الوراثية لشعوب الإسكيمو مع الصفات الآسيوية، حتى في الشعوب الأحدث نسبيًا، مثل جرينلاند وآيسلندا، حيث نجد تقاربًا ملحوظًا في الملامح الشكلية مع شعوب شرق آسيا. شكل (7)

وبما أن ذا القرنين كان قد وصل إلى المنطقة القطبية الشمالية، فلا بُد أن القوم «الذين لا يفقهون قولا» هم من السكان الأصليين لهذه المنطقة أي أنه قابل بعضًا من قبائل الإسكيمو. والدليل على هذا هو ما وجدناه في أثناء البحث في أصل كلمة «إسكيمو».

شكل (7) إسكيمو من جرينلاند

وهناك ثلاث نظريات لأصل كلمة «إسكيمو»:

- أولًا: أنها تعني **«آكلو الطعام النِّيء»** وهذا المعنى ترفضه شعوب

الإسكيمو نفسها، وترى فيه ازدراءً لها. كما أثبت الكثير من الباحثين أن هذه الترجمة غير مشتقة من اللغة الأصلية للإسكيمو، بل اشتُقَّت من لغة قبائل الجونج «Algonquians»، التي تقطن في شمال كندا.

- ثانيًا: أنها تعني «ناسجو أحذية الثلج»، ويشتقها الباحثون من كلمة (إسيم- و) «assime-w»، والتي تعني في لغة الإسكيمو: «هي تربط حذاء الثلج».

- ثالثًا: أنها تعني «الشعب ذو اللغة الغريبة أو المختلفة» وهذه النظرية هي الأكثر قبولًا عند الباحثين، حيث إنها مشتقة من كلمة (أسكيمي) «Askime» في لغة قبائل الإسكيمو نفسها، والتي تعني «الناطقين بلغة غريبة». وقد أكَّدت على ذلك عالمة الأنثروبولوجي المعروفة (جوس ميلهوت(14))، والتي تتحدث لغة الإسكيمو في بحث عن أصل كلمة إسكيمو، وخلصت إلى أنها تعني «الشعب ذو اللغة المختلفة أو الغريبة».

ونحن نرجح المعنى الثالث؛ لأنه الأقرب إلى دلالة الآية في قول الله تعالى: {لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا}. والمعنى أن ذا القرنين قد قابل شعبًا يقطن في المنطقة القطبية الشمالية، وهذا الشعب يُكنى بأنه الشعب ذو اللغة الغريبة، فجاء التعبير بـ {لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا} دلالة على اسم هؤلاء القوم. وهذا التفسير يزيل التعارض بين هذه الآية وما تلاها من آيات، والله تعالى أعلم.

وقد يتبادر إلى الذهن سؤال وهو: هل لغة الإسكيمو غريبة فعلًا؟

والإجابة نقرأها في الموسوعة العربية. فلغة الإسكيمو هي إحدى اللغات التي تنتمي إلى عائلة «إسكيمو-إليوت» اللغوية والتي تضم لغات قبائل الإسكيمو، وبعض القبائل الهندية التي قطنت في شمال كندا وألاسكا. وتضم هذه اللغة لهجات تختلف اختلافًا كبيرًا حسب المنطقة الجغرافية، حتى إن المتحدثين لغة الإليوت يصعب عليهم التفاهم والتواصل مع المتحدثين بلهجات الإسكيمو. وبعض هذه اللهجات قد انقرض بالفعل، وبعضها لا يتحدث به سوى بضع مئات من الأشخاص. وعمومًا، يُقدَّر عدد المتحدثين بلغات «الإسكيمو-إليوت» حاليًا بحوالي مائة ألف نسمة فقط، موزعين في جرينلاند وشمال كندا وألاسكا وسيبريا. ويميز لغة الإسكيمو بعض الأمور التي تجعلها مختلفة عن اللغات الأخرى مثل:

1. لا توجد علاقة أو صلة بين هذه العائلة اللغوية وأي عائلة لغوية أخرى في العالم. بعكس ما نجده من صلات بين العائلات اللغوية المختلفة، فمثلًا العائلة الهندية الأوروبية التي تضم الإنجليزية، الألمانية، الإسبانية، الأردو، البنغالية، البرتغالية وغيرها، توجد بها بعض الصلات والمفردات التي تلتقي مع العائلة الإفريقية الآسيوية، التي تضم اللغات السامية والعربية ولغات القرن الإفريقي وغيرها. أما لغة الإسكيمو فتنفصل تمامًا عن هذه اللغات.

2. رغم أن قبائل الإسكيمو تعود إلى آلاف السنين قبل الميلاد، إلا أن لغة

الإسكيمو كانت منطوقة فقط، ولم تصبح مكتوبة إلا منذ قرون قليلة على أيدي المبشرين، الذين وصلوا إلى هذه المناطق بداية من القرن الثامن عشر الميلادي. ويُعد المبشر الدنماركي - النرويجي هانز إيجيد هو أول من نشر كتابًا بلغة الإسكيمو عام 1742.

3. من مزايا لغة الإسكيمو أنها تستخدم الكثير من اللواحق suffixes، وتخلو من السوابق prefixes والكلمات المركبة. وتضاف اللواحق بصورة مبالغ فيها عن أي لغة أخرى، إلى درجة أنه يمكن اختزال جملة مكونة من عدة كلمات في مقطع واحد، يضاف إلى كلمة ما ليعبر عن معنى الجملة بأكملها. ومن الطرائف المشهورة عن لغة الإسكيمو، أن كلمة «جليد» أو «ثلج» يمكن أن يُشتق منها ألف كلمة بإضافة لواحق عليها تعطيها معاني مختلفة.

4. ومن الأشياء الغريبة في هذه اللغة أيضًا أن أسماء الإشارة (هذا، هذه، تلك،...) تُسْتَخْدَم في صيغ مختلفة ومتعددة، وتصل صيغ الإشارة في لغة الإسكيمو إلى ثلاثين صيغة إشارة، مقارنة بأربع صيغ للإشارة فقط في اللغة الإنجليزية (This, that, these, those)(15).

كل هذه الخصائص الغريبة نجدها في لهجات لغة الإسكيمو الحالية، التي كافحت الانقراض على مدار آلاف السنين. فما بالنا بخصائص اللهجات الأصعب التي انقرضت مع الوقت، والتي من المحتمل معاصرتها لرحلة ذي القرنين. وصدق الله العظيم حين وصفهم بقوله: {لَّا يَكَادُونَ

يَفْقَهُونَ قَوْلًا}.

ونأتي إلى السؤال الذي ختمنا به الفصل الأول وهو: في أي مكان في المنطقة القطبية الشمالية قابل ذو القرنين قبائل الإسكيمو، خصوصًا أن هذه القبائل قد انتشرت في أماكن مختلفة بالمنطقة القطبية الشمالية؟

يقول تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا}

تنص الآيات على أن ذا القرنين قد قابل هؤلاء القوم وراء منطقة أسماها القرآن الكريم بمنطقة «بين السدين». وقد سبق وذكرنا آراء المفسرين في معنى قوله تعالى «بين السدين». والتي تتفق أغلبها على أن السدين هما جبلان عظيمان بينهما ثغرة، وقيل هما جبلا أرمينيا وأذربيجان من ناحية بلاد الترك. وقال المفسرون أن ذا القرنين قد اقترب من ثغرة بين جبلين، فلما وصل إلى هناك وجد القوم الذين لا يكادون يفقهون قولا، فأخبروه بأمر يأجوج ومأجوج، وطلبوا منه بناء السد. فبنى السد بين الجبلين ليسد على يأجوج ومأجوج منفذ الدخول إليهم.

وأما القول بأن السدين هما الجبلان الموجودان بين أرمينيا وأذربيجان، واللذان يقعان شرق تركيا، فهو غير صحيح. وقد ذكرنا أسباب ذلك في الفصل الأول، كما أن هاتين الدولتين تقعان في نطاق المنطقة الحارة الشمالية، جنوب الدائرة القطبية الشمالية، وهذه المنطقة لا توجد بها

الخصائص الفلكية التي ذكرناها آنفًا؛ فلا هي في مطلع الشمس، ولا هي في مشرق الشمس. وأما القول بأن السد الذي بناه ذو القرنين موجود بين هذين الجبلين، فهو أيضًا غير صحيح. فالسد القريب من تلك المنطقة، والذي وصفه بعض المؤرخين في كتبهم نقلًا عن سلام الترجمان، هو حصن «دربند»، الذي أقامه الشاه الفارسي كوادا وابنه كسرى الأول عام 438 ميلاديًا، ولا علاقة له بذي القرنين. ومن المثير أن بعض المفسرين قد وصفوا الجبلين فقالوا: «إنه مر بين جبلين لينين أملسين، يزلق عليهما كل شيء، ولا ينقرهما شيء»، وهذا يشبه إلى حد كبير جبال الجليد، ولذا فالراجح من استقراء النص أن ذا القرنين قد عبر مانعا مائيًا بين جبلين في منطقة المحيط المتجمد الشمالي، وعبور مانع مائي وحاجز جبلي يتفق ولفظ القرآن بأنهما «سدَّان»، وهذا يتفق مع رحلة الشخصية التي نفترض أنها ذو القرنين كما سيأتي لاحقًا.

ونخلص من هذا الجزء من البحث بأن قبائل الإسكيمو هم القوم الذين «لا يكادون يفقهون قولا»، الذين أخبروا ذا القرنين بأمر يأجوج ومأجوج. فمن هم يأجوج ومأجوج؟

جميع الحقوق محفوظة لقناة رَقَش

(٣)

من هم يأجوج ومأجوج

قال تعالى: {قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا}.

قال المفسرون في وصف يأجوج ومأجوج قولين؛ أحدهما أنهما بشر، ومن نسل آدم عليه السلام، والآخر أنهم خلق خاص ومختلف، وسنسرد هذين الرأيين، ونفندهما فيما يلي:

أولًا: القول بأنهم بشر:

وهذا الرأي أخذ به الكثير من المفسرين، فقالوا إن يأجوج ومأجوج هما اسمان لقبيلتين من نسل ماجوج بن يافث بن نوح عليه السلام، وقد سكنوا شمال بلاد الترك. وذكرت تأويلات عدة عن هاتين القبيلتين، فمن قائل بأنهم أصل الترك، وأن الترك إنما سُمّوا تركًا؛ لأنهم ممن تُرِكوا من نسل يأجوج ومأجوج أمام السد. أما الباقي من يأجوج ومأجوج، فقد حجزوا خلف السد وسينقبونه قبل قيام الساعة ليعيثوا في الأرض الفساد. واستشهدوا على هذا بالحديث الذي ذكره مسلم في صحيحه: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون التّرك قومًا وجوههم كالمجانِّ المُطْرَقَة يلبَسون الشّعر، ويمشون في الشّعر»، أي ينتعلون أحذية من الشعر. وذهب النووي والكثير من شارحي هذا الحديث إلى أن قتال الترك قد حدث بالفعل في عهد الصحابة،

وفي خلافة معاوية بن أبي سفيان، ولهذا لا يمكن أن يكونوا هم الترك.

ومنهم من قال إن يأجوج ومأجوج هم **«المغول» أو «التتار»**، واستشهدوا على ذلك بالحديث الذي ورد في صحيح البخاري: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا خوزًا وكرمان من الأعاجم، حمر الوجوه، فطس الأنوف، صغار الأعين، كأن وجوههم المجان المطرقة نعالهم الشعر»، وقد قاتل المغول العرب، وأسقطوا بغداد وقتلوا الخليفة المعتصم، وحل خراب شديد بالدولة الإسلامية، ومع ذلك لا يصح أن نعتقد أن المغول هم يأجوج ومأجوج، فقد كُسرت شوكتهم وهزموا في موقعة عين جالوت، كما أن المغول قد أسلموا وحسُن إسلامهم. فضلًا عن أن خروج يأجُوج ومأجوج أمر مرتبط بأحداث آخر الزمان، فلا يجوز ربطه بحرب وقعت في الماضي.

والقول إنهم من نسل آدم -عليه السلام- يعود في أغلب الظن إلى الكثير من الأحاديث الضعيفة، التي رسّخت لهذا المعنى، منها على سبيل المثال ما رواه القرطبي عن أبي هريرة قال، قال رسول الله عليه وسلم: «ولد لنوح سام وحام ويافث، فولد لسام العرب وفارس والروم والخير فيهم، وولد ليافث يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة ولا خير فيهم، وولد لحام القبط والبربر والسودان»، وهذا الحديث ضعفه الألباني وابن كثير، وقيل عنه ضعيف من سائر طرقه.

ثانيًا: القول بأنهم خلق مختلف:

وفي هذا الرأي وردت روايات وأحاديث كثيرة تنافي العقل والمنطق، فقيل إنهم أشباه البهائم، ويصل طول بعضهم إلى مثل شجر الأرز، وحددوا مائة وعشرين ذراعًا، وإن منهم من يصل طوله إلى أقل من شبر، وإن لهم مخالب وأنياب السباع. وقالوا إنهم يتناسلون في سرعة رهيبة، ويعيشون في جوف الأرض بعد أن ردم عليهم ذو القرنين، وما زالوا ينبشون السد بأظافرهم منذئذٍ، فلا يستطيعون له نقبا، لأنه صلد، ويحاولون تسلقه فلا يستطيعون أن يظهروه، لأنه أملس.

وكما سبق وذكرنا، فإن هذه الآراء مستمدة من الأحاديث الموضوعة أو الضعيفة والمقتبسة بدورها من الإسرائيليات، والتي لا نرى أهمية في ذكرها طالما أنها خارج نطاق بحثنا في آيات القرآن والأحاديث المتفق عليها.

تفسير المؤلف

المعنى اللغوي ليأجوج ومأجوج:

حين شرعنا في وضع تفسيرنا ليأجوج ومأجوج كان مدخلنا هو المعنى اللغوي لكلمتي يأجوج ومأجوج. فالقرآن الكريم هو معجزة بيانية، وقد نزل {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ}. ولهذا كانت لغة العرب من أهمِّ المصادر وأوثقها في معرفة كلام الله تعالى، وكان من أهمِّ ما فيها معرفة دلالات الكلامِ، أي معاني الألفاظ، ليُعرفَ المرادُ بالخطابِ. ولقد جاء في لسان العرب أن يأجوج ومأجوج اسمان أعجميان بدليل منعهما من الصرف. ولكن قيل أيضًا إنهما مشتقان، وإن مصدر الكلمتين واحد وهو المصدر «أ ج ج». ونطالع في معجم لسان العرب أن المصدر «أ ج ج» يشتق منه الكثير من الكلمات والمعاني:

- أولًا: أجّج بمعنى أشعل، ويشتق منها كلمات مثل «أجيج»: بمعنى لهيب النار، أو صوت النار، و«أجوج» بمعنى مضيء أو برّاق، و«يأجوج» على وزن يفعول أو فاعول، وتعني الشيء شديد التأجج أو الاشتعال.

- ثانيًا: **«أجّ الماء»** بمعنى اشتدت ملوحته أو حرارته، ومنها «الماء الأجاج» وهو الماء المالح، و«أجيج الماء» وهو صوت انصبابه، و«مأجوج» على وزن مفعول، تعني الماء وقد اشتدت ملوحته أو حرارته.

- ثالثًا: أجّ بمعنى أسرع أو هرول فيقال «أجَّ في سيره» إذا هرول. والأُج

هو الاندفاع في سرعة.

وبناء على هذا المعنى فإن يأجوج ومأجوج هما شيئان، أحدهما شديد الحرارة والاشتعال، أي (يأجوج). والثاني ماء مالح، أي (مأجوج). وكلاهما يشتركان في الاندفاع والمباغتة والسرعة. وهذه الأوصاف لا تنطبق إلا على شيئين «**البراكين**» و«الفيضانات».

وعلى هذا، فإن محنة يأجوج ومأجوج الكبرى، التي ستقع في آخر الزمان، ما هي إلا كارثة كونية عظيمة سينفجر فيها عدد كبير من البراكين في آن واحد، وسيصحبها موجات عاتية من فيضانات البحار والمحيطات والمعروفة باسم تسونامي. فتهبط الحمم من فوق قمم الجبال على القرى والمدن، وتغرق الأراضي والبلدان بالفيضانات، وتختفي الحياة بأشكالها على جزء كبير من كوكب الأرض، إلا من شاء الله له أن ينجو من هذه الكارثة. جعلنا الله وإياكم ممن لا يدركون هذه المحنة، أو من الناجين منها إذا أدركناها.

وحريٌ بمثل هاتين المحنتين أن يفزع لهما رسول الله فيقول: «ويل للعرب من شر قد اقترب»، وحريٌ بهما أن يصفهما الله لعيسى بن مريم فيقول: «إني قد أخرجت عبادًا لي لا يدان لأحد بقتالهم». وحريٌ بهما أن يوصفا بأنهما «مفسدون في الأرض» فأي شيء أكبر إهلاكًا للزرع والنسل من هذين الشيئين.

وفي كلمتي «يأجوج» و«مأجوج» إعجازٌ لفظيٌ بليغٌ. فالكلمتان تتقاربان في الاشتقاق اللفظي، رغم أنهما تحملان معنيين مختلفين، ومدلولا الكلمتين يتقاربان في التأثير التدميري، وكذلك يتقاربان في صفة السرعة والمباغتة.

وارتباط يأجوج ومأجوج لفظًا في القرآن، وفي كل ما ورد من أحاديث عن رسول الله فيه إعجاز أيضًا، فمن المعروف -كما سيرد لاحقًا- أن البراكين وفيضانات البحار والمحيطات يرتبطان ارتباطًا وثيقًا من الناحية الجيولوجية والمناخية. وقلما يحدث بركان من البراكين الكبرى دونما يتبعه أعاصير وفيضانات شديدة. بل إن البراكين فيْ المناطق القطبية المتجمدة تكون مصحوبة بفيضان ناتج من الذوبان الجليدي فيما يعرف باسم «الفيضان البركاني». فيأتي البركان شديد التأجج والاشتعال (اليأجوج) مصحوبًا بقرينه فيضان الماء الناتج من ذوبان الجليد (المأجوج)، فيهبطان في سرعة شديدة من فوق الجبال الجليدية، ويدمران مساحات شاسعة من البلدان والقارات.

وبعد أن طرحنا هذا التفسير المستند إلى المعنى اللغوي، سنسوق بعض الأدلة على هذا التفسير. وستشمل أدلة علمية، وأدلة قرآنية، وأدلة من الحديث الشريف. ونبدأ بهذا السؤال: هل البراكين والفيضانات من المهددات الكبرى للحياة على كوكب الأرض أم لا؟

البراكين والفيضانات ونهاية العالم

البراكين هي تضاريس برية أو بحرية، تتجمع فيها المواد المنصهرة على عمق من القشرة الأرضية، ثم تخرج هذه المواد مصحوبة بالأبخرة الحارة من خلال فوهات أو شقوق. وأغلب البراكين تأخذ شكل الجبل المخروطي (Volcanic cone)، وبعضها على شكل فجوات موجودة على سطح الأرض، تعرف بالفوهات (Crater)، وبعضها على شكل أخاديد طويلة موجودة على سطح الأرض تعرف بالشقوق الأنبوبية (Fissure Vents). ويخرج من البركان نوعان من المقذوفات السائلة؛ وهي **الحمم** (Lava)، وتعرف في اللغة العربية باسم **الخبث**(16)، وتتكون من صخور منصهرة، وتبلغ درجة حرارتها من 1000إلى 1200 درجة مئوية. والصهارة (Magma) (17)، وتُعرف في اللغة العربية **بالمُهل** وهي صخور السيليكا المذابة. وأرجو أن يلاحظ القارئ دلالة الترجمة وعلاقتها بتفسيرنا.

وبجانب المقذوفات السائلة هناك الأبخرة البركانية، وأهمها الهيدروكربون وثاني أكسيد الكبريت وبخار الماء. ومن أشهر نواتج البركان، والتي تترك أثرًا طويل المدى على البيئة، **الغبار البركاني** (volcanic ash). وهذا الغبار البركاني رأينا تأثيره بوضوح في عم 2010 عقب انفجار بركان أيسلندا الصغير نسبيًا، حين تسبب في موجة صقيع وأمطار شديدة في شمال أوروبا، تسببت في إغلاق المطارات لعدة أسابيع. ويتكون الغبار البركاني من حبيبات دقيقة تقل عن 2ميلليمتر من المواد الصلبة، تتعلق في طبقات الجو العليا وتستطيع أن تنتشر لمسافات طويلة مع الرياح لتغطي مساحات

شاسعة من اليابسة. ولا تنحصر خطورة هذا الغبار في انتشار أمراض الصدر والجلدية فحسب، بل إن خطورته الأكبر تكمن في تأثيره في المناخ. حيث يؤدي هذا الغبار إلى حجب ضوء الشمس تمامًا لعدة أيام، ويلي هذا حدوث موجات صقيع شديدة تعرف باسم «الشتاء البركاني»، ويعتقد العلماء أن حدوث العصر الجليدي كان نتيجة لهذه الظاهرة. شكل (8)

شكل (8) الغبار البركاني

البراكين العملاقة ونهاية العالم:

وضع العلماء الغربيون قائمة بالكوارث الكبرى التي تهدد الحياة على كوكب الأرض، وأسموها «مخاطر الوجود» (existential risks). ويُقصد بها الكوارث ذات النطاق التدميري الواسع، والتي يمكن أن تؤثر بشدة على

جميع مظاهر الحياة على كوكب الأرض، وذكروا أن هذه المخاطر قد تؤدي إلى انقراض الكثير من الكائنات الحية، وقد تعيد الجنس البشري إلى أول سلم الحضارة.

ويعرّف البروفيسور «نيك بوستروم» أستاذ الفلسفة بجامعة أوكسفورد «مخاطر الوجود» بأنها المخاطر التي قد تؤدي إلى فناء الجنس البشري، أو إلى استمراره مع فناء حضارته(18).

وتضم هذه القائمة مخاطر من صنع الإنسان مثل وقوع حرب نووية عالمية، أو حرب بيولوجية، أو مخاطر مناخية مثل حدوث الشتاء العالمي (العصر الجليدي الثاني) أو الاحتباس الحراري، ومخاطر كونية مثل سقوط المذنبات أو الإشعاعات الكونية المميتة. ولكن أحد أهم هذه المخاطر هو انفجار البراكين العملاقة «super-volcanoes».

وانفجار البراكين العملاقة تُعد من المخاطر ذات الاحتمالية العالية في نسبة الحدوث، مقارنة بباقي مخاطر الوجود؛ نظرًا لانتشار هذه البراكين على سطح الكرة الأرضية، ونظرًا لانفجار بعضها فعليًا في بعض مراحل تاريخ الحياة على كوكب الأرض، مما يجعلها مخاطر مادية حقيقية، لا تستند في خطورتها على التنظير العلمي أو الفلسفي فقط.

ويعرّف البركان العملاق بأنه البركان الذي يمكنه أن يطرح أكثر من ألف كيلومتر مكعب (1000كم3) من الحمم في أثناء انفجاره. وللتوضيح فإن

هذه الكمية تكفي لأن تغطي مساحة دولة مثل فرنسا بالحمم بارتفاع يتجاوز المترين. وجدير بالذكر أن بركان «لاكي» الذي انفجر في أيسلندا عام 1783-1784، والذي أودى بأرواح ربع سكان أيسلندا، كانت حجم الحمم التي طرحت منه لا تتجاوز 14 كم3، وهذا للمقاربة فحسب. وقد وضع العلماء تصنيفًا للبراكين لا يعتمد على حجم الحمم فحسب، وإنما على قوة الانفجار، وارتفاع سحابة الانفجار، وكمية الغبار البركاني الناجمة، وكذلك التأثير التدميري للبركان، وأطلقوا عليه «مؤشر الانفجار البركاني» أو «Volcanic explosivity Index VEI». وأعنف البراكين هو ما يكون عند المؤشر 8 وأكثرها خمولًا هو ما يكون عند المؤشر صفر. ولا يُعرف أعداد البراكين العملاقة تحديدًا، ولكن أكبر البراكين العملاقة على وجه الأرض يوجد في منطقة القطب الشمالي، ويُعرف باسم بركان «حافة جاكل» (Gakkel Ridge) وهو من الدرجة الثامنة، وتقدر كمية الحمم المحتملة لو وقع انفجار به 3000 كم3، مما يجعله الأكبر على الإطلاق، يليه بركان يليستون كالديرا في الولايات المتحدة، ثم بعض البراكين في نيوزلاند وتشيلي والأرجنتين.

ومن أكثر البراكين عنفًا وخطورة أيضًا، بركان بحيرة طوبا بجزيرة سومطرة الإندونيسية، إذ يبلغ حجم الحمم التي قد يطرحها هذا البركان في حال انفجاره -لا قدر الله- حوالي 2800 كم3. وهناك نظرية شهيرة في علم الجيولوجيا تعرف باسم «نظرية كارثة طوبا(19)» أو «Toba

Catastrophe theory»، وتنص النظرية على أن انفجار بركان طوبا قد حدث منذ آلاف السنين، مما أدى إلى حدوث موجة من الصقيع، انخفضت معها درجة الحرارة على سطح الأرض إلى ما دون ثلاث درجات مئوية، فيما يعرف مناخيًا باسم «الشتاء البركاني الطويل»، ويظن العلماء أن هذا التغير المناخي قد استمر لمدة ألف عام على الأقل، وأدى إلى انقراض الكثير من الكائنات الحية، وانخفاض أعداد البشر إلى ما دون العشرة آلاف، فيما يعرف أيضًا عند علماء الأنثروبولوجي والتطور الإنساني بظاهرة «عنق الزجاجة السكانية» أو «population bottleneck»، وهي ظاهرة انخفاض عدد سكان الأرض إلى حد الاقتراب من الانقراض نتيجة لكوارث طبيعية.

ويكثر عدد البراكين النشطة والخطيرة في المنطقة القطبية الشمالية، وبالأخص في سيبيريا، وألاسكا، ودولة أيسلندا، والتي لها علاقة بتفسيرنا عن رحلة ذي القرنين التي سترد في الفصل الثالث.

وتُعد أيسلندا أكثر بقعة نشاط بركاني في العالم، فهي تقع على «صدع منتصف الأطلسي»، الذي يفصل الصفيحة الجيولوجية الأوروآسيوية من صفيحة أمريكا الشمالية، وتضم أكثر من 400 فوهة بركانية، ومتوسط الانفجارات البركانية بها مرة كل خمس سنوات حتى عام 2010، ولكن مؤخرًا ازداد هذا المعدل، حتى إنه في عام 2023، وحده، انفجرت سبعة براكين. وهذا النشاط البركاني المتزايد في أيسلندا يزيد مخاوف العلماء، ويرون فيه خطورة كبيرة قد تهدد كوكب الأرض بأكمله. ولا يرجع هذا إلى

الخوف من التأثير المباشر للبراكين فحسب، ولكن إلى الخشية من حدوث ذوبان جليدي كبير، قد يؤدي إلى ارتفاع مستوى المحيطات وغرق مساحات كبيرة من اليابسة. كما أن ضخ كميات كبيرة من المياه إلى المحيطات، يؤدي إلى تباعد الكتلة اليابسة عند الحدود الفاصلة بين الصفائح الجيولوجية التكتونية الكبرى، ويؤدي هذا التباعد إلى زلازل شديدة وبراكين متعددة في وقت واحد على امتداد تلك الحدود الفاصلة. وهذا يفسر سلسلة الكوارث الطبيعية المتزامنة التي وقعت عام 2010 و2011 بعد انفجار بركان أيسلندا، فقد وقعت سبعة زلازل في أماكن متفرقة، كان أعنفها زلزال هاييتي المدمر الذي راح ضحيته ربع مليون نسمة، وزلزال تشيلي الذي صاحبه موجات تسونامي، وزلزال اليابان، والذي صاحبه تسونامي اليابان. وهذا يذكرنا بقوله تعالى: {مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ}، أي أن يأجوج ومأجوج كارثة عامة ستقع في أماكن متفرقة، في وقت واحد.

وبعد أن فرغنا من الحديث عن البراكين أو «**اليأجوج**» في تفسيرنا، سنبدأ بالحديث عن «**مأجوج**» أو الفيضانات الكبرى والمسماة بموجات المد العاتية «Tsunami» .

موجات المد العاتية «تسونامي» ونهاية العالم:

كلمة تسونامي هي كلمة يابانية تنقسم إلى مقطعين «تسو» بمعنى موجة و«نامي» بمعنى كبير، أي أن معناها هو الموجة الكبيرة. ويعد التسونامي الناتج من انفجار بركان سانتوريني في اليونان عام 1600 قبل الميلاد، هو

أول تسونامي مسجل تاريخيًا، رغم وجود أدلة جيولوجية على وقوع حوادث تسونامي في أزمنة سابقة لحادثة بركان سانتوريني، ولكنها لم تسجل. وتشير الأدلة الجيولوجية إلى أن ثوران بركان سانتوريني صاحبه ارتفاع عمود دخان لمسافة 35 كم إلى السماء، ثم سقطت بعده مئات الأطنان من الصخور والحمم في البحر المتوسط، وتسببت في موجة تسونامي عاتية، بلغ ارتفاعها حوالي 150 مترًا، وقد أدى ذلك إلى اختفاء «حضارة مينوان» تمامًا، وهي حضارة الشعوب التي سكنت سواحل اليونان آنذاك، والتي كُشِف عن بعض منجزاتها في موقع أكروتيري الأثري في جزيرة سانتوريني تحت ركام الرماد البركاني. وقد أثّر هذا الانفجار، وما صاحبه من تسونامي وتغيرات مناخية، على مصر وعلى حضارات شرق البحر المتوسط وخلّف بعض الدمار(20). وقد سجلت الحضارة المصرية القديمة التغيرات المناخية التي صاحبت هذا الحدث المهيب في لوحة شهيرة اسمها «لوحة العاصفة» أو «Tempest Stele» والتي تعود إلى عصر أحمس الأول، وقد عُثِر على قطع مكسورة منها في معبد الكرنك عام 1947، وقد ترجمها علماء فرنسيون. وتصف العبارات الموجودة على بقايا اللوحة الرعب الذي أصاب مصر، والعالم آنذاك(21).

وهذه ترجمة لبعض العبارات المذكورة في تلك اللوحة:

- «لقد أعربت الآلهة عن استيائها، وأتت بعاصفة ومطر، وتسببت في ظلام المنطقة الغربية كلها!».

- «السماء مطلقة العنان، وهدير الحشد قوي، والماء فوق الجبال أشد من هدير الشلال في جزيرة فيلة».

- «لقد وصلوا إلى كل مكان، كل بيت، كل مأوى، وكانوا يطفون فوق الماء كألواح البردي، وحول القصر الملكي، ولم يتمكن أحد من مجرد إشعال شعلة، حتى قال جلالته: كيف تفوقت تلك الأحداث على قدرة الإله العظيم؟».

ويتضح من تلك الكلمات حجم الخوف والرعب الذي أصاب المصريين من تلك الحادثة. ومن أشهر حوادث تسونامي في التاريخ المعاصر حادثة عام 2004، حينما وقع زلزال غرب جزيرة سومطرة الإندونيسية نتج عنه موجات مد عاتية أودت بحياة ما يقرب من ربع مليون شخص في إحدى عشرة دولة، وكان ارتفاع الموج فيها 30 مترًا فقط، أما تسونامي اليابان الذي وقع في أعقاب زلزال عام 2011، فقد أودى بحياة ثمانية عشر ألف شخص، ودمر مائتين وثمانين ألف منزل في خمس دقائق، وكان ارتفاع الموج آنذاك تسعة وثلاثين مترًا.

والأخطر من موجات المد العاتية التي تحدث نتيجة تساقط الحمم الخارجية على المسطحات المائية، أو الزلازل، هو تلك الموجات التي تحدث نتيجة انفجار البراكين الموجودة تحت الماء، والتي تُعرف باسم البراكين الغائصة أو «submarine volcanoes»، ويتولد من هذا الانفجار

طاقة جبارة تنتقل إلى سطح الماء في صورة موجات عالية، يصل ارتفاعها في بعض الأحيان إلى مئات الأمتار، وقد يمتد عرضها إلى حوالي مائتي كيلومتر. وتنطلق هذه الموجات بسرعة رهيبة إلى اليابسة تصل في بعض الأحيان إلى 800 كيلومتر في الساعة، أي ما يقرب من سرعة الطائرة. ونظرًا لضحالة المياه بالقرب من الشواطئ، تُكبَح سرعة الموجات مما يؤدي إلى زيادة ارتفاعها، ليبلغ أقصى ارتفاع لها لحظة ارتطامها باليابسة، فتبدو الموجة كطوفان هائل يغشى الساحل، ولا يعترضه شيء إلا أهلكه، وهذا ما يسمى بالتسونامي العملاق.

التسونامي العملاق «Mega tsunami»:

يعرّف التسونامي العملاق بأنه التسونامي الذي يصل فيه ارتفاع الأمواج إلى أكثر من خمسمائة متر، وقد يؤدي ذلك إلى غرق دول بأكملها، أو حتى قارات مثل قارة أستراليا!

وقبل عام 1958 ميلاديًا، كانت فرضية وقوع تسونامي عملاق أشبه بالخيال العلمي. إلى أن وقعت حادثة في القطب الشمالي جعلت العلماء يعيدون التفكير في احتمالية وقوع موجات تسونامي عملاقة، قد تؤدي إلى إغراق مساحات شاسعة من العالم. ونذكر قصة هذه الحادثة كما ذكرها شهود العيان، وكما جاءت في تقرير وزارة الداخلية، وهيئة المساحة الجيولوجية الأمريكية. شكل (9)

Giant Waves in Lituya Bay Alaska

By DON J. MILLER

SHORTER CONTRIBUTIONS TO GENERAL GEOLOGY

GEOLOGICAL SURVEY PROFESSIONAL PAPER 354-C

A timely account of the nature and possible causes of certain giant waves, with eyewitness reports of their destructive capacity

شكل (9) تقرير حكومي من الولايات المتحدة الأمريكية عن الموجات العملاقة التي ضربت خليج ليتويا في ألاسكا عام 1958

وفيما يلي ملخص هذا التقرير كما ترجمته: «في عام 1953 ذهبت بعثة من الجيولوجيين لأول مرة إلى منطقة خليج ليتوايا بشمال ألاسكا بالقطب الشمالي، للتنقيب عن البترول. كان الخليج محاطًا بمجموعة من التلال التي اكتست بغابة من أشجار الصنوبر العتيقة، والتي يصل عمرها لمئات السنين. لاحظ العلماء أن حجم وعمر الأشجار يتضاءل كلما اقتربوا من ساحل الخليج، بخلاف باقي الخلجان في هذه المنطقة، والتي تنمو على شواطئها أشجار صنوبر عتيقة كبيرة الحجم. كما لاحظ طاقم البعثة أن

الأشجار التي تنمو فوق التلال تعاني دمارًا وتكسيرًا في فروعها من جهة البحر، بعكس الفروع الموجودة في الجهة المقابلة، فقد بدت سليمة معافاة. أرجع علماء البعثة هذه المشاهدات إلى احتمال وقوع موجة مد عاتية من النوع العملاق في حقبة ما من حقب التاريخ، أدت إلى القضاء على الأشجار القريبة من الشاطئ، ودمرت أفرع الأشجار الباسقة فوق التلال من جهة البحر. كان هذا التفسير يبدو عجيبًا بعض الشيء في ذلك الوقت. فقد كانت التلال ترتفع لأكثر من نصف كيلومتر فوق البحر، وارتفاع الموج إلى مثل هذا الحد لم يصفه أحد من قبل. وبعد خمس سنوات، وتحديدًا في التاسع من يوليو عام 1958، حدث ما تخيله العلماء من قبل. ففي صباح ذلك اليوم وقعت هزة أرضية بلغت 8.3 بمقياس ريختر في منطقة خليج ليتويا، أدت إلى تساقط الصخور وقطع الثلج الضخمة إلى مياه الخليج. وقُدر حجم الانهيارات الصخرية والجليدية بحوالي 90 مليون طن من الصخور، سقطت كدفعة واحدة في مياه الخليج. مما أدى إلى تولد طاقة إزاحة رهيبة، أحدثت موجة مد عاتية، بلغ ارتفاعها 524 مترًا (1117 قدمًا). وكان «هوارد أورليش» و«ويليام سوانسون» يصطادان في مياه الخليج مع آخرين على ثلاثة مراكب للصيد حين وقعت الهزة الأرضية. وقد ابتلعت الموجة مركبين من مراكب الصيد، في حين حملت المركب الثالث التي يقودها هوارد وزميله إلى أقصى ارتفاع لها. وبعد أن انحسرت الموجة وُجِد مركب هوارد وزميله معلقًا فوق الأشجار، على ارتفاع خمسمائة متر فوق سطح البحر».

وأشار التقرير إلى أن وقوع الحادثة في خليج ضيق قد أنجى العالم من حدوث كارثة كبرى، كان من الممكن أن تحدث لو وقعت في محيط مفتوح. ومنذ وقوع تلك الحادثة، أصبح التسونامي العملاق أحد مخاطر الوجود التي تهدد الحياة على كوكب الأرض.

ومن الأمور القرآنية التي تشير إلى وقوع تسونامي عملاق في التاريخ البشري، ووصفته الآيات القرآنية بدقة بلاغية متناهية، تصل إلى درجة الإعجاز في الوصف، **قصة طوفان نوح عليه السلام**.

ففي القصة القرآنية كان نوح عليه السلام يصنع الفُلك في اليابسة، {وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ} (هود 38)، وقد ذكر الطبري في تفسيره أنهم كانوا يسألونه: «تعمل سفينة في البر! فكيف تجري؟»، وتخبرنا الآيات بعد ذلك أن هناك تغيرًا مناخيًا مهولًا قد حدث، وصاحبه سقوط أمطار منهمرة، وتَفجُّر الأرض بالمياه، يقول تعالى: {فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ١١ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ} (القمر 11-12)، والأرض لا تتشقق وتتفجر بالعيون إلا بحدوث زلازل، وكثير من العيون الحارة المعروفة بالينابيع الساخنة «hot springs»، تظهر مع الهزات الأرضية، وكان هذا الانقلاب المناخي مقدمة لحدوث أكبر موجة تسونامي عرفتها البشرية، ووثقتها ملحمة جلجامش السومرية، ووصفتها كذلك الكتب المقدسة، ولكن وصف القرآن كان بليغًا معجزًا في دقته العلمية. فانظر معي إلى وصف الموج في قوله تعالى: {وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي

مَوْجٍ كَالْجِبَالِ}، وهذا ليس من باب التشبيه، وإنما من باب الدقة، فالجبل جيولوجيًا جزء مرتفع عن القشرة الأرضية، لا يقل عن 500 متر، وهذا يدل على أن هذه الموجة كانت تسونامي عملاقة. والدليل على ذلك أيضًا، أن نوح -عليه السلام- حينما نادى على ابنه، وقال له: يا بني اركب معنا، قال له الشاب: سآوي إلى جبل يعصمني من الماء، فكان رد نوح عليه واضحًا: {قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ}، مما يعني أن الموج سيطغى على الجبل، وهذا ما حدث بالفعل بعد انقشاع الموجة المباغتة، حيث استقرت السفينة فوق جبل الجودي، تمامًا مثلما حدث مع حادثة خليج ألاسكا. {وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ} (هود 44)، والله تعالى أعلم.

وبعد أن تحدثنا عن «مأجوج»، أو موجات تسونامي العملاقة، نتحدث الآن عن العلاقة بين يأجوج ومأجوج، أو بمعنى آخر العلاقة بين البراكين والفيضانات.

العلاقة بين البراكين والفيضانات:

ترتبط الفيضانات والبراكين ارتباطًا وثيقًا. ويعتقد العلماء أن أكثر من 75٪ من البراكين الموجودة على كوكب الأرض مستقرة في قاع المحيطات. وتُسمى هذه البراكين بالبراكين الغائصة «submarine volcanoes»، والكثير من هذه البراكين في حالة نشاط، وتنطلق منها الحمم البركانية، ولكن نظرًا لوجودها على أعماق سحيقة، ونظرًا لبرودة

المياه لا يظهر أثرها المدمر على السطح. ويُستدل على انفجار هذه البراكين في قاع المحيط حينما يحدث تغير في لون مياه المحيط، أو حينما تطفو بعض الرواسب البركانية من اللافا المتجمدة -قليلة الكثافة- فوق السطح. وقد حدث أن انفجر بركان كولومبو في بحر إيجه عام 1650، وانطلقت الحمم البركانية من منتصف البحر لتقتل 70 شخصًا في إحدى القرى القريبة. وفي عام 1963م، وُلِدت جزيرة جديدة بالقرب من ساحل أيسلندا. وحدث ذلك عندما دفع انفجار بركاني في قاع البحر بالحمم إلى ما فوق سطح البحر، واستمر تدفق هذه الحمم لمدة ثمانية عشر شهرًا، وأخذت الجزيرة تكبر حتى وصلت مساحتها 2.5 كيلومتر مربع، وأُطلق عليها اسم «سورتسي». وهناك الكثير من الحوادث الجيولوجية التي امتزج فيها الأثر التدميري للبراكين مع الأثر التدميري للفيضانات، وكأنهما يموجان في بعض. وقد ذكرنا أمثلة تاريخية لها مثل انفجار بركان سانتوريني. ولعل أشهر هذه الانفجارات في العصر الحديث، والتي أعقبها حدوث تسونامي ضخم، هو انفجار بركان «كراكاتو» في إندونيسيا، وهو أضخم انفجار بركاني مسجل في التاريخ الحديث، ووقع عام 1883. وتقع جزيرة كاراكاتو بين سومطرة وجاوه بإندونيسيا. وحينما انفجر البركان قتل 36 ألف شخص، وحجب الغبار البركاني أشعة الشمس لمدة يومين ونصف، عاش خلالها السكان في ظلام دامس، ولم يكد الغبار البركاني ينقشع حتى حدثت موجات تسونامي عاتية، ما إن انتهت، حتى وجد سكان إندونيسيا «جزيرة كراكاتو» وقد اختفت تمامًا من على سطح البحر.

وقد أشار بعض علماء القرآن حديثًا إلى أن «**البحر المسجور**»، أي البحر المشتعل، الذي ورد ذكره في القرآن الكريم، قد يقصد به الفيضانات البركانية. وأن البحار المنفجرة التي ذكرت في القرآن في قوله تعالى: {وإذا البحار فجرت} (الانفطار 3)، وقوله: {وإذا البحار سجّرت} (التكوير 6)، قد يُقصد بهما انفجارات البراكين الغائصة في أعماق المحيطات، والله تعالى أعلم.

وبالعودة إلى منطقة القطب الشمالي، التي تحمل مدلولًا كبيرًا في قصتنا عن يأجوج ومأجوج، نجد أن العلاقة بين البراكين والفيضانات أكثر تناغمًا، إذ لا يمكن أن ينفصل أحدهما عن الآخر،

تماما كعدم انفصال يأجوج عن مأجوج، وذلك لارتباط هذه البراكين بحدوث ما يعرف بالذوبان الجليدي. فحينما يثور البركان في المناطق القطبية تؤدي الحمم البركانية إلى حدوث ذوبان الجليد فوق قمم تلك الجبال (Icecap melting)، ويُصاحب ذلك انهيارات ثلجية خطيرة. وينتج عن تلك الانهيارات نوع خطير من الفيضانات المدمرة، التي تسمى بالفيضانات البركانية (Volcanic floods)، حيث تحمل المياه المتدفقة من فوق قمم الجبال الحمم البركانية بسرعة رهيبة، حتى يخيل لمن يراها أن بحرًا مشتعلًا قد فاض. شكل (10)

شكل (10) صورة لفيضان بركاني، حيث تحمل المياه الناتجة من الذوبان الجليدي الحمم المشتعلة لتصب في المحيط، والصورة ملتقطة من فيديو لانفجار بركان أيسلندا الأخير

ومثل هذا الارتباط بين خطر انفجار البراكين وحدوث موجات التسونامي يذكرنا بقوله تعالى: {إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ}. وهذه القوة والسرعة والمباغتة في التدمير يذكرنا بقوله عز وجل: {حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ}. فلا أشد من هذه المحنة على كوكبنا، وقانا الله تعالى شرها.

وبعد أن قدمنا الأدلة العلمية والعقلية على هذه المحنة، نقدم الدليل من القرآن الكريم والأحاديث النبوية.

الدليل من القرآن الكريم والحديث

أولًا: الأدلة القرآنية:

1. **يقول تعالى في سورة الأنبياء:** {حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ}.

تتفق كلمات الآيات كلها ودلالاتها مع القول بأن يأجوج ومأجوج هما البراكين والفيضانات. فكلمة «**فُتِحت**»، تناسب ثورة البراكين التي تنفتح فيها القشرة الأرضية لتطلق من فوهاتها الحمم البركانية، وتستخدم أيضًا في وصف هطول المطر، وحدوث موجات تسونامي العاتية كما سبق وذكرنا في قصة نوح في قوله تعالى: {فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ ١١ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ} (القمر11-12). ويكون إعراب الجملة مباشرًا، حيث تصبح يأجوج هي نائب الفعل، وليس محذوفًا تقديره السد أي «فتح عن سدهما»، كما قال بعض المفسرين لتوفيق المعنى.

وكلمة «**حدب**»: والتي تعني الجبل أو ما ارتفع من الأرض، تتفق أيضًا مع تأويلنا. فالبراكين مع ما يصحبها من ذوبان جليدي أو فيضان بركاني، كما سبق وذكرنا في الفصل السابق، تتساقط من فوق قمم الجبال نحو السهول والوديان التي يقطنها البشر في سرعة. وقد جاء أيضًا في المعجم الغني، أن «حدب الماء» هو ما ارتفع من موجه، وقد يكون المقصود من قوله: {مِّن كُلِّ حَدَبٍ}، حدب اليابسة وحدب الماء. أي ينسلون من فوق الجبال، ومع موج البحر.

وأيضًا في كلمة «كل» في قوله: {مِّن كُلِّ حَدَبٍ} إشارة يجب التوقف

عندها، فكلمة «كل» تفيد العموم، وهذا يعني أن الحدث لن يكون في موضع واحد، بل مواضع متعددة، وهذا يجعلها كارثة حقيقية، ومحنة كبرى ستمر بها الكرة الأرضية، وقد ذكرنا في الفصل السابق أن هذا محتمل الحدوث مع الانفجارات الكبرى التي تؤثر في طول الصدع في القشرة الأرضية.

وقد تحمل كلمة «**حدب**» دلالة أخيرة، فحدبة الأرض هي قطبها؛ لأن الكرة الأرضية ذات شكل بيضاوي، وحينئذٍ يكون معنى {مِّن كُلِّ حَدَبٍ} أي من كلا القطبين: الشمالي والجنوبي. وهذا المعنى له مدلول في تأويلنا حيث إن أغلب مخاطر البراكين والفيضانات تتمركز عند القطبين، والله تعالى أعلم.

أما كلمة «يَنسِلُونَ» فتعني يهبطون في سرعة ومباغتة. وقد ذكر بعض المفسرين أن كلمة ينسلون تعني يخرجون، استنادًا إلى قول الله: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ} أي يخرجون، وكلا المعنيين يتفق مع تأويلنا.

ولو حاولنا أن نفسر معاني الكلمات السابقة على أن يأجوج ومأجوج من البشر لوجدناها غير متسقة، فضلا عن كونها تتنافى مع المنطق والعقل. فكيف نتخيل قومًا يهبطون من فوق قمم الجبال قبل قيام الساعة ليثيروا الرعب في نفوس الناس، وأن نعتبر هذه إحدى المحن الكبرى التي سيتعرض لها البشر. فشتان بين رؤية الحمم البركانية تحملها الفيضانات

العاتية، وهي تهبط مسرعة نحو القرى في مشهد تشخص له الأبصار، وتذهل منه النفوس، وبين رؤية شعوبٍ محاربة مهما كانت قوتهم.

2. **يقول تعالى في سورة الكهف:**{قَالُوا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ}.

سبق وذكرنا أن الإفساد فعل يقوم به البشر، ويقوم به الحيوان، ويقوم به الجمادات والأشياء المجردة. والأمثلة على ذلك كثيرة فنقول: «أفسد الفراغ الشباب»، ونقول: «أفسد الملح الطعام» فهو مُفسِد للطعام، ونقول: «أفسدت الريح الزرع» فهي مُفسِدة للزرع. وفي الحديث الذي أخرجه أحمد وصححه الألباني: أنَّ ناقةَ البَراءِ بنِ عازبٍ دخَلَت حائطًا، فأفسَدَت فيه، فقَضَى نبيُّ اللهِ: أنَّ على أهلِ الحوائطِ حفْظَها بالنَّهارِ، وأنَّ ما أفسَدَتِ المَواشي باللَّيلِ ضامِنٌ على أهلِها»، فوصف الناقة والمواشي بالإفساد.

وقد ذكرنا في الفصل الأول أن فَسّدَ الشيء أي أباره وأهلكه. و«المفسد» هو المهلك. ولا يوجد وجه للمقارنة بين إهلاك ودمار البراكين والفيضانات، وإهلاك البشر وإفسادهم. وقد يرى البعض أن كلمة «مفسدون» جاءت بجمع المذكر السالم، وهذا يعطيها صفة العاقل. وحقيقة الأمر أنه يجوز جمع غير العاقل من الجمادات وغيرها بجمع المذكر السالم إذا أسند إليه فعل العاقل. يقول القرطبي -رحمه الله- في كتابه الجامع لأحكام القرآن «والعرب تجمع ما لا يعقل جمع من يعقل إذا أنزلوه منزله، وإن كان خارجًا عن الأصل»، والشيء نفسه قاله بن حيان في كتابه البحر المحيط، فقال:

«ومن السائغ في كلام العرب أنْ يعطى الشيء حكم الشيء للاشتراك في وصف ما، وإن كان ذلك الوصف أصله أن يخص أحدهما». والأمثلة على جواز جمع غير العاقل بجمع المذكر السالم كثيرة في القرآن الكريم. منها قول الله تعالى: {إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ} (يوسف: 4).

وقوله تعالى: {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ} (الأعراف: 166).

وقوله عز وجل: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} (فصلت:11).

وقول الله تعالى: {لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} (يس: 40).

وقوله تعالى عن الأصنام: {وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ} (الأعراف: 198).

والشيء نفسه ينطبق على الضمير «هم» في هذه الآيات.

ولأن الفساد، بما فيه من قحط وجدب وإهلاك للحرث والنسل، فعل أصيل من أفعال يأجوج ومأجوج، فإنه لا غرابة في أن يُجمعا جمع العقلاء، حتى وإن كانا من غير ذلك.

3. يقول تعالى: {فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا}.

تحمل هذه الآية دليلًا مباشرًا على طبيعة الشر الذي أثار مخاوف القوم الذين لا يكادون يفقهون قولا. فلو كان يأجوج ومأجوج من البشر لطلب القوم من ذي القرنين أن يقاتلهم، ولكنهم طلبوا منه أن يجعل بينهما سدًا. وفيم جُعِل السد؟ إن السد يقي الناس شر الفيضانات المدمرة ويحجزها عنهم. وإذا كان الفيضان من نوع خاص، ويصاحبه من آن لآخر سقوط بعض الحمم البركانية على قريتهم، لأصبح لزامًا أن يشيّدوا سدًا من نوع خاص، لا تَظهره الفيضانات، ولا تنقِبه الحمم. ولهذا استنجدوا بهذا الرجل العظيم الذين توسموا فيه العلم والمعرفة. ونلمس في رد ذي القرنين إحساسه بخطورة المهمة التي أوكلوها إليه، وأنه أمر لا يستطيع أن يقوم به وحده، فاستعان بالله وطلب منهم أيضًا المعاونة فقال: { قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا} والمقارنة بين هذا الرد ورده في موضع القتال والنزال في رحلته إلى مغرب الشمس، يوضح الفرق الجلل بين طبيعة المخاطر في كلا الموقفين.

وسوف نفرد فصلًا كاملًا عن طبيعة هذا السد، وكيف بناه ذو القرنين، ومن أين أتى بالمعادن اللازمة، وكيف نجح هذا السد في أن يقي هؤلاء القوم شر يأجوج ومأجوج بحسب تأويلنا عنهما.

4. يقول تعالى عن السد: { فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا}.

وفي هذه الآية دليل آخر على تأويلنا لطبيعة يأجوج ومأجوج. فقوله تعالى: {فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ}، تعني أن يأجوج ومأجوج لم يتمكنوا من تجاوز السد، و«ظهر الشيء» في اللغة أي علاه، وصار فوقه، وهذا يتفق مع القول بأنهما يحملان صفة الفيضان، وقوله: {وَمَا ٱسْتَطَاعُواْ لَهُ نَقْبا} توضح أن هذا الفيضان له طبيعة خاصة حارقة، فهو قادر على الفيض وقادر على الاختراق، وهذا يتماشى مع كونه فيضانًا بركانيًا. ولولا توفيق الله لذي القرنين الذي برع في اختيار مواد البناء لأمكن لهما اختراق السد أو تحطيمه منذ زمن طويل. وقد فسّر المفسرون هذه الآية بأن يأجوج ومأجوج لا يستطيعون تسلق السد لأنه أملس، ولا يستطيعون نقبه بالمعاول لأنه صلد، بل وذهب بعضهم إلى أنهم ينبشون السد بأظافرهم محاولين الخروج، وهذا تفسير لا محل له في عصرنا الحالي.

وكلمتا **(اسطاعوا)** و**(استطاعوا)** بمعنى قدروا على فعل الشيء، وكلاهما مشتق من (طَوَعَ)، بمعنى قدَرَ، وفعل الاستطاعة لا يقتصر على البشر، وقد قال القرآن عن الأصنام: {لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ} (يس 75). وقال قيس بن ذريح، أو قيس لبني، في وصف الإبل وهي تحوم حول صغيرها:

«تَشَمَّمْنَهُ، لَوْ يَسْتَطِعْنَ ارْتِشَافَهُ

إِذَا سُفْنَهُ، يَزْدَدْنَ نَكْبًا عَلَى نَكْبِ»

والتاء الزائدة في استطاعوا تفيد المشقة، والمعاناة، أما اسطاعوا فللمشقة الأقل، والمعنى أن يأجوج ومأجوج لم يتجاوزوا السد وهو الفعل الأسهل، ولم يخترقوه وهو الفعل الأصعب؛ لأن الاختراق أكثر مشقة من التجاوز. وقال ابن كثير -رحمه الله-: «فما اسطاعوا أن يظهروه، وهو الصعود إلى أعلاه، وما استطاعوا له نقبا، وهو أشق من ذلك، فقابل كلا بما يناسبه لفظا ومعنى». وهذا من البلاغة والدقة في اختيار اللفظ.

5. **يقول تعالى:** {وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا}.

جاء في تفسير هذه الآية أن «**بعضهم**»، تعود على يأجوج ومأجوج بعد انهيار السد، وقيل إن استعارة الموج لهما دلالة على الحيرة وتردّد بعضهم في بعض، فشبههم الله بموج البحر الذي يضطرب بعضه في بعض. وكلمة «**يموج**» تتفق تمامًا مع تأويلنا دون الحاجة إلى اعتبارها استعارة تفيد الاختلاط والاضطراب. بل إنها تعبير حقيقي عما سيحدث من اختلاط الحمم بمياه الفيضانات ومياه الذوبان الجليدي وفتكها بالبشر.

6. **يقول تعالى:** {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا}.

قال المفسرون أي جُمِع الإنس والجن ويأجوج ومأجوج مع نفخة الصور. ونحن نرى أن سياق الآيات يتحدث عن يأجوج ومأجوج فقط، وأن الضمير في «**جمعناهم**» عائد على يأجوج ومأجوج أيضًا مثل بعضهم في الآية

السابقة، ولا علاقة لذلك بالجن والإنس. وفي هذه الآية نص صريح على عودة يأجوج ومأجوج مرة أخرى مع النفخ في الصور ومع بدء أهوال الساعة. وحينما نتلو آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن أهوال الساعة، نجد أن جميعها تتحدث عن كوارث كونية مثل الزلازل والبراكين وانفجار البحار إلى آخره. يقول تعالى:

{إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ١ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ٢}، (الزلزلة 1-2).

{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ١٠٦} (طه 105).

{وإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ} (الانفطار 3).

{وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ} أي اشتعلت، (التكوير 6).

{وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ} (المعارج 9).

{وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ} (القارعة 5).

والعهن مفرده عهنة، وقال الحسن وكذلك رُوي عن السيدة عائشة أن «العهن» هو الصوف المصبوغ بالأحمر، وهو تشبيه بليغ لشكل الجبال حينما تغطى بالحمم البركانية والصهارة، فيصير لونها أحمر قانيًا، وتبدو كقطعة الصوف الحمراء المنتفخة.

وكل هذا يثبت أن ظهور يأجوج ومأجوج سيحدث مرتين: الأولى ككارثة

سيهلك فيه الكثير من البشر، وستؤثر تأثيرًا بالغًا على كوكب الأرض، والثانية مع أحداث قيام الساعة والنفخ في الصور.

ثانيًا: الأدلة من الحديث:

قدمنا في الفصول السابقة أن الأحاديث التي وردت عن يأجوج ومأجوج كثيرة، ولكن ما ورد منها في الصحيحين قليل جدًا، وما اتفق عليه الشيخان حديثين اثنين فقط. وقد انتهجنا في بحثنا الاعتماد على الأحاديث المتفق عليها فقط. وبعد أن ذكرنا تأويلنا عن يأجوج ومأجوج، نعود لنقرأ متن هذه الأحاديث في ضوء هذا التفسير لنرى إن كان يتعارض مع تفسيرنا أم لا.

أولًا: الأحاديث المتفق عليها:

1. حديث ويل للعرب

عن أم المؤمنين زينب بنت جحش -رضي الله عنها- قالت: خرج رسول الله ﷺ يوما فزعًا، محمرا وجهه، يقول: لا إله إلا الله. ويل للعرب من شر قد اقترب. فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه»، وحلق بإصبعه الإبهام، والتي تليها. قالت فقلت: يا رسول الله! أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم. إذا كثر الخبث».

وقد نتساءل لماذا خصَّ الرسول ﷺ العرب بهذا الويل، والويل كما نعلم واد في جهنم. وهو دعاء بالهلاك لمن يستحقه، وما معنى «قد اقترب» إذا كان الحدث لم يقع حتى الآن؟ وإذا كان فُتِح في الردم مقدار حلقة صغيرة

بين الإبهام والسبابة، فلماذا لم يتسع الفتق حتى الآن؟ وما معنى إذا كثر الخبث؟

وقد قيل في تخصيص العرب في الحديث، لأن المسلمين هم أكثر من يُبتلى بخروج يأجوج ومأجوج، وهذا في الحقيقة غير صحيح، لأن الكافرين أيضًا مشمولون بالأمر، بل دعوا على أنفسهم بالويل في قوله: {وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ}، وهذا ينفي أن يكون العرب هم المبتلين وحدهم، فخروج يأجوج ومأجوج لن يفرق بين صالح وطالح، بدليل سؤال السيدة زينب «أنهلك وفينا الصالحون؟، قال نعم إذا كثر الخبث».

وقيل في قوله: قد اقترب «إن الاقتراب وقرب الشيء أمر نسبي، فلا ندري عن مقدار هذا الاقتراب ولا عن موعد وقوع هذا الشر، ولا يمكن أن يقدّر هذا الاقتراب بمجرد العقل»، وهذا صحيح، ولكنه مع ذلك لم يقدم تفسيرًا عن التعارض الظاهر بين قوله قد اقترب وبين عدم خروج يأجوج ومأجوج من الفتحة التي ظهرت منذ ألف وأربعمائة عام.

وفي ضوء تفسيرنا عن يأجوج ومأجوج قد يكون التخصيص للعرب هو وقوع انفجار بركاني في جزيرة العرب يؤدي إلى دمار شديد. وقد سبق وذكرنا أن يأجوج ومأجوج في آخر الزمان حادثة عامة لا تقتصر على مكان واحد، وستحدث في أماكن متعددة، ولن تقتصر على منطقة القطب التي وقعت فيها الحادثة التاريخية لذي القرنين. وهذا الحديث يتحدث عن آخر

الزمان، وعلى هذا فإن الرسول اختص العرب بيأجوج ومأجوج المستقبلية التي ستهدد الجزيرة العربية. والسؤال هل هناك بركان مخيف بالقرب من جزيرة العرب؟ والإجابة نعم. وهي براكين اليمن، فمن المعروف أن اليمن به عدد من الجبال البركانية، بالإضافة إلى أن بركان عدن، يُعد أحد البراكين العملاقة. ويتفق هذا مع الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن أشراط الساعة: «**وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم**»، وفي رواية أخرى: «**ونار تخرج من قعرة عدن تسوق الناس إلى محشرهم**».

وانظر إلى دقة اللفظ في قوله «قعرة عدن» فمدينة عدن تعرف باسم (crater) أو الفوهة؛ لأنها تقبع فوق فوهة بركان، فهي بالفعل كالقعرة، والقعرة هي الغور أو الشيء العميق.

وقد يكون الرسول رأى في منامه، أو أوحى الله إليه، بدء نشاط هذا البركان، وهو ما جعله يهلل، ويفزع خوفًا على العرب ويقول: «ويل للعرب»، وتكون كلمة «قد اقترب» حينئذ مفسرة لأنه من المعلوم أن نشاط البركان الخامد قد يستغرق آلاف السنين، ويكون التعارض بين قد اقترب وعدم حدوثه لألف وخمسمائة عام مفهوما في هذه الحالة، والله تعالى أعلم.

وقوله: «**نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ**»، تحمل أيضًا إعجازًا لفظيًا من حيث دلالة المعنى. فقد يفهم منها «نعم إذا كثر الخبث» أي إذا كثرت الأخلاق الرديئة والفسق والفجور، فسيحل الهلاك على الجميع الصالح منهم والطالح وهذا

هو المعنى الأقرب الذي ذكره شراح الحديث، ولكن هناك معنى آخر لكلمة «**الخبث**» وهو الحمم البركانية، كما ذكرنا، ويكون المقصود حينئذ: نعم إذا كثرت الحمم، فسيهلك الجميع الصالح منهم والطالح.

2 - حديث بعث النار:

عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال، قال رسول الله ﷺ يقول الله عز وجل: يا آدم! فيقول: لبيك! وسعديك! والخير في يديك! قال يقول: أخرج بعث النار. قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين. قال فذاك حين يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد. قال فاشتد ذلك عليهم. قالوا: يا رسول الله! أينا ذلك الرجل؟ فقال: أبشروا. فإن من يأجوج ومأجوج ألفًا. ومنكم رجل. قال ثم قال: والذي نفسي بيده! إني لأطمع أن تكونوا ربع أهل الجنة. فحمدنا الله وكبرنا. ثم قال: والذي نفسي بيده! إني لأطمع أن تكونوا ثلث أهل الجنة. فحمدنا الله وكبرنا. ثم قال: والذي نفسي بيده! إني لأطمع أن تكونوا شطر أهل الجنة. إن مثلكم في الأمم كمثل الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود».

وقد سبق وذكرنا أن هذا الحديث القدسي فيه تناقض بين رواية أبي سعيد، ورواية أبي هريرة. فقد روى البخاري -رحمه الله- رواية أخرى لهذا الحديث، لم يذكر فيها يأجوج ومأجوج.

«فعن أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: أَوَّلُ مَنْ يُدْعَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ آدَمُ، فَتَرَاءَى ذُرِّيَّتُهُ، فَيُقَالُ: هَذَا أَبُوكُمْ آدَمُ. فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ جَهَنَّمَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، كَمْ أُخْرِجُ؟ فَيَقُولُ: أَخْرِجْ مِنْ كُلِّ مِائَةٍ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ. فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذَا أُخِذَ مِنَّا مِنْ كُلِّ مِائَةٍ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ فَمَاذَا يَبْقَى مِنَّا؟ قَالَ: إِنَّ أُمَّتِي فِي الأُمَمِ كَالشَّعَرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي الثَّوْرِ الأَسْوَدِ».

والتناقض بين الروايتين يقع في نسبة الناجين من النار من أبناء آدم، ففي الأولى النسبة واحد من الألف، وفي الثانية عشرة من كل ألف. وشبهة التناقض بين الروايتين رد عليها شراح الحديث بأن المغزى هو كثرة عدد أهل النار بالنسبة لأهل الجنة وليس مدلول العدد، وذهب آخرون إلى تقديم رواية أبي هريرة، التي لم يُذكر فيها يأجوج ومأجوج، على رواية أبي سعيد ومنهم ابن حجر العسقلاني كما سبق وذكرنا. وربما يحل تأويلنا، أن يأجوج ومأجوج ليسوا بشرًا هذا التناقض، فرواية أبي هريرة تتحدث عن «بعث جهنم» من ذرية آدم، بينما رواية أبي سعيد تتحدث عن «بعث النار» من ذرية آدم وغيرها. والبعث، لغة هو الإحياء والإرسال، «وبعث النار» كل ما يحيها ويشعلها ويؤججها، فيكون المقصود في رواية أبي سعيد كل ما يشعل النار ويؤججها. والقرآن الكريم يشير إلى وجود أشياء من مؤججات النار غير البشر، ففيها الحجارة يقول تعالى: {فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}، وفيها الأصنام {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن

دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ}، وفيها كذلك المهل، يقول تعالى: {كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ} والمهل من أسماء الصهارة، وقيل هو النحاس المذاب والقطران، وقيل اسم جامع لما ذاب من الحديد والفضة والنحاس ونحوه. وفيها الحميم يقول تعالى: {وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ}، وقيل الحميم الماء بالغ الحرارة. وتتشابه هذه المكونات مع صفات يأجوج ومأجوج التي ذكرناها في تفسيرنا، وعلى هذا فهما من بعث النار، أو مما يعمل على تأجيجها، والله تعالى أعلم.

ثانيًا: ما انفرد به البخاري:

حديث «ليُحَجَّن البيت»:

عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: «قال رسول الله ﷺ: ليُحَجَّنَّ البيتُ وليُعْتَمَرَنَّ بعدَ خروجِ يأجوجَ ومأجوجَ».

وهذا الحديث لا يتعارض ما تفسيرنا عن يأجوج ومأجوج، ويشير إلى نجاة مكة من تلك الحادثة.

ثالثًا: ما انفرد به مسلم:

1 - حديث علامات الساعة:

عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر. فقال: «ما تذاكرون؟» قالوا: «نذكر الساعة». قال: «إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات». فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من

مغربها، ونزول عيسى ابن مريم ﷺ، ويأجوج ومأجوج. وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب. وآخر ذلك نار تخرج من اليمن، تطرد الناس إلى محشرهم».

وهذا الحديث لا يتنافى مع تفسيرنا عن يأجوج ومأجوج، بل إنه يشير إلى أن جُلّ علامات الساعة هي ظواهر كونية (الدخان - طلوع الشمس من مغربها - يأجوج ومأجوج - ثلاثة خسوف - ونار اليمن).

2 - حديث الدجال:

ولنا مع هذا الحديث وقفة؛ فهو أكثر الأحاديث التي رسخت للفكرة السائدة عن يأجوج ومأجوج رغم غرابتها. وهذا الحديث لم يأخذ به البخاري -رضي الله عنه- ولم يروِه في صحيحه، وهذا يعني أنه ليس من الأحاديث المتفق عليها، كما قال عنه الترمذي حديث غريب صحيح، ومعنى غريب أن إسناده فيه تفرد، ولم يعرف إلا برواية عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، التي أخذ بها مسلم. ولكني سأذكره لكثرة التعليقات التي وردتني عنه، وقد سبق وذكرت رأي الشيخ محمد رشيد رضا في أحاديث أشراط الساعة عمومًا، وفي أحاديث الدجال تحديدًا. فقد ذهب الشيخ، صاحب المكانة الكبيرة بين علماء التفسير والحديث، إلى أن الدجال لم يُذكر في القرآن، وأن أحاديث الدجال متناقضة تناقضًا يوجب تساقطها وقال: «وجملة أخبار الدجال قالوا إنها متواترة، يعنون التواتر المعنوي، وهو أن لها أصلًا، وإن لم يتواتر شيء من روايتها». ثم تابع: «بمثل هذه الخرافات كان كعب الأحبار يغش

المسلمين ليفسد عليهم دينهم وسُنتهم، وخُدِع به الناس لإظهاره التقوى ولا حول ولا قوة إلا بالله(22).

وقد صرح أهل العلم مثل ابن كثير والسخاوي والشوكاني والكتاني بأنه لم يتواتر من أحاديث الدجال شيء من روايتها، وإن لم يعتبروا ذلك شرطًا لصحة الحديث. وقد ذهب الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين أيضًا إلى إنكار حديث الجساسة الذي رواه مسلم عن فتنة الدجال. وقال: «إن النفس لا تطمئن إلى صحته عن النبي ﷺ؛ لما في سياق متنه من النكارة(23)»، واستشهد برأي الشيخ محمد رشيد رضا في ذلك.

وقد ذهب فريق من المفكرين إلى صحة ما ورد من أخبار عن الدجال، ولكن مع الأخذ برمزيتها، وليس معناها المباشر، ومن هؤلاء الشيخ الإمام محمد عبده الذي قال: «إن الدجال رمز للخرافات والدجل والقبائح». ومثله قال محمد فهيم أبو عبية في تعليقه، وتحقيقه لكتاب النهاية لابن كثير حيث قال: «إن الدجال رمز لاستشراء الباطل، وليس رجلًا من بني آدم».

وكذلك قال الدكتور مصطفى محمود -رحمه الله-، الذي رأى أن صفاته تنطبق على النظرة الأحادية للعالم المادي المتقدم الذي نعيشه، والذي سيشهد تطورًا مذهلًا يزعزع الإيمان. وهم في هذا قد حملوا اللفظ على المجاز، وليس على المعنى المتبادر للذهن. وقد قال تاج الدين السبكي في كتابه الأشباه والنظائر: «حمل اللفظ على ما يتبادر إلى الذهن أولى، ومن

ثم يحمل على الحقيقة ما لم يترجح المجاز بشهرة أو غيرها».

ونعود إلى حديث الدجال، في صحيح مسلم، وما ذكر فيه من أمر يأجوج ومأجوج، ونحن نرى أن الوقائع التي ذكرها الحديث عن يأجوج ومأجوج، تتفق تمامًا مع تأويلنا بأنهم البراكين والحمم، إذا أخذت برمزيتها وليس بلفظها المباشر. ولنقرأ الجزء الخاص بيأجوج ومأجوج في الحديث: «فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى: إني قد أخرجت عبادًا لي لا يدان لأحد بقتالهم، فحرز عبادي إلى الطور. ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أوائلهم على بحيرة الطبرية، فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم، فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماءٌ، ويحصر نبي الله وأصحابه، حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرًا من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم، فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيرًا كأعناق البخت فتحملهم، فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطرًا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر، فيغسل الله الأرض حتى يتركها كالزلفة، ثم يقال للأرض: أنبتي ثمرتك، وردي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة، ويستظلون بقحفها، ويبارك في الرسل حتى إن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس،

فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحا طيبة. فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة».

ونرى في هذا الحديث ما يلي:

1. يأتي خروج يأجوج ومأجوج في ترتيب أحداث آخر الزمان، بعد القضاء على الدجال والتفاف المؤمنين حول المسيح عيسى بن مريم عليه السلام.

2. يقول الله سبحانه وتعالى لعيسى بن مريم: «**إني قد أخرجت عبادًا لي لا يدان لأحد بقتالهم**». ووصفهم بالعباد يدل على خضوعهم لله عز وجل والتخصيص في قوله: «لي»، يدل على أنهم مأمورون بأمره، مكلفون بالخروج وقتما يأذن بذلك. وقوله: «لا يدان لأحد بقتالهم»، يعني لا يستطيع أحد قتالهم، ولا يُكافأ عليه، حتى نبي الله عيسى بن مريم وصحبته من المؤمنين. وعباد الله لا يشترط أن يكونوا من البشر، فكل الموجودات في الكون هم من عباد الله، فالنجم والشجر يسجدان لله عز وجل، والحجر يهبط من خشيته، والرياح يرسلها مبشرات، ويرسلها أيضًا للعقاب، وكذا المطر والبرق والرعد والزلازل، كلها جند من جنود الله عز وجل مأمورة بأمره، يسلطها على من شاء من عباده وقتما يشاء.

3. أن الله عز وجل قد أمر عيسى بن مريم عليه السلام بأن يصعد بالمؤمنين إلى جبل الطور قال: «فحرز عبادي إلى الطور»، حتى يحتمي مع

أصحابه من اجتياح يأجوج ومأجوج. وقد يبدو عجيبًا أن يعتصم المؤمنون بقمة الجبل في الوقت الذي ينسل فيه يأجوج ومأجوج من فوق قمم الجبال، وكأن جبل الطور معصوم من اجتياح يأجوج ومأجوج، أو كأنهما يهبطان الجبال ولا يصعدانها. ويذكرنا اعتصامهم بقمة الجبل بقول ابن نبي الله نوح وقت أن وقع الطوفان: «قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء»، ولكن شتان بين قضاء الله في الحالين ففي الأول قال: «لا عاصم اليوم من أمر الله»، وفي الثاني جاء الاعتصام بالجبل نزولًا على أمر الله. والطور هو جبل مبارك كلم الله عليه موسى، ولا يوجد به نشاط بركاني، ولن يطول المحتمين به أذى.

4. قوله: «فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها» النص يوضح أن أول ما يحدث مع ظهور يأجوج ومأجوج هو جفاف بحيرة طبرية. ومن المعلوم أن البحيرات تجف مع الهزات الأرضية أو حدوث البراكين نتيجة تسرب المياه في الشقوق الأرضية، مثلما حدث مع بحيرة طوبا حينما انفجر بركان سومطرة بإندونيسيا.

5. و«يُحصر نبي الله وصحبه» فلا يستطيعون الهبوط. ويقل الغذاء والطعام «حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرًا من مائة دينار»، فيلجؤون إلى الله حتى يكف عنهم يأجوج ومأجوج. كناية عن قلة الغذاء والطعام لهلاك الحيوان وفساد التربة بالملوحة والحمم. فيرسل الله الشيء الذي سيقضي على يأجوج ومأجوج ويبدأ معه انجلاء تلك الغمة وهو النغف.

6. **«فيرسل الله عليهم النغف»**، وهي الديدان الأولية أو اليرقات، وقيل في لسان العرب هي دودة سوداء طويلة تحيا في باطن الأرض، يقصد بها دودة الأرض أو الخرطون (Earthworm). ومن المعلوم أنه لاستعادة خصوبة التربة بعد الملوحة والبوار، تبدأ الحياة في صورتها الأولية. ودودة الأرض هذه من الديدان التي تزيد خصوبة التربة؛ فهي تبتلع الأجسام الصلبة الكبيرة وتحيلها إلى حبيبات صغيرة كما أنها تنتج الأزوت الذي يزيد الخصوبة. شكل (11)

شكل (11) دودة الأرض

وكلمة في **(رقابهم)**، قد تؤخذ مجازًا على أنها تقضي عليهم، وقد تؤخذ حرفًا، فقد ورد في لسان العرب أن الجذر «رقب» يشتق منه الكثير من الكلمات، ومنها الرقبة وهي في الأصل العنق، ورقبة الشيء طليعته، أو ما ارتفع منه، والمرَاقِب والرِقاب هي الأرض المرتفعة وما علا منها، وقيل: «كل ما أوفيت عليه من جبل أو رابية لتنظر إليها»، كما أنشد أبو عمرو:

ومَرْقَبَةٍ كالزُّجِّ، أَشْرَفْتُ رأْسَها

أُقَلِّبُ طَرْفي في فَضاءٍ عَريضِ ورَقَبَ

والمعنى المجازي، أن النغف قد يتسلل إلى تلك الجبال والروابي البركانية، التي ملأت الدنيا بالحمم، وأفسدتها ليعيد إليها خصوبتها.

7. بعد أن يقضي النغف على يأجوج ومأجوج تتعذر الحياة على الأرض من آثارهم، فيبتهل نبي الله والمؤمنون إلى الله، فينقلهم إلى مكان آخر. مما يدل على أن يأجوج لم يصلوا إلى كل أرجاء المعمورة، بل حفظ الله بعض الأماكن من شرورهما.

8. ثم يرسل الله مطرًا، فيغسل الله الأرض حتى يتركها كالزلفة، ثم يقال للأرض: أنبتي ثمرتك وردي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة، ويستظلون بقحفها.

يغاث المؤمنون بالمطر، ومن المعلوم أن بعد انفجار البراكين تحدث التغيرات المناخية الكبيرة التي ذكرناها، ويتبعها سقوط الأمطار، الذي

سيكون مطر خير، فيغسل الأرض من رمادها البركاني حتى تصير كالزلفة، أي ناصعة كالمرآة، وتحل البركة، فتخصب الأرض وينمو زرعها حتى تأكل العصابة من الناس من الرمانة الواحدة، وتسمن البهائم حتى تأكل القبيلة من اللقحة من البقر، أي البقرة الحلوب. ومن المعلوم أن التربة البركانية من أخصب الترب الزراعية، والأشجار في التربة البركانية قد تصل إلى عشرات الأمتار، وثمارها كبيرة الحجم، وينعكس ذلك على الثروة الحيوانية.

9. يرسل الله بعد ذلك بزمن ريحًا طيبة، فتقبض روح المؤمنين، وتظل الأرض معمورة بشرار الناس يشيعون فيها الهرج والمرج حتى تقوم عليهم الساعة.

وعلى هذا، فقد ذكرنا آراء المفسرين عن يأجوج ومأجوج، وذكرنا تفسيرنا لهم، ثم سقنا على ذلك الأدلة النقلية من الكتاب والسنة.

ونتناول الآن أمرًا ربما شغل العقول كثيرًا، وهو البحث عن السد.

جميع الحقوق محفوظة لقناة رَقَش

(٤)

البحث عن السد

يشغل السؤال عن مكان السد الذي أقامه ذو القرنين بال الكثير من الباحثين، سواء المعاصرين منهم أو القدامى. ولعل أقدم الرحلات الاستكشافية التي أُعدت للوصول إلى السد كانت رحلة «سلام الترجمان»، التي وقعت أحداثها في عصر الخليفة العباسي «الواثق بالله» في عام 232 هجريًا (722 ميلاديًا). وقد ذكر العالم الجغرافي الشريف الإدريسي هذه الرحلة في كتابه «نزهة المشتاق فيْ اختراق الآفاق»، واعتمد على المعلومات التي وردت في هذه الرحلة لتحديد موقع السد في خرائطه بين جبلي أرمينيا وأذربيجان، وسار على نهجه العديد من الجغرافيين والباحثين. وقد رسم الشريف الإدريسي رسمًا لموقع هذا السد بناء على وصف سلام الترجمان، وتناقل هذا الرسم الجغرافيون من بعده. شكل (12)

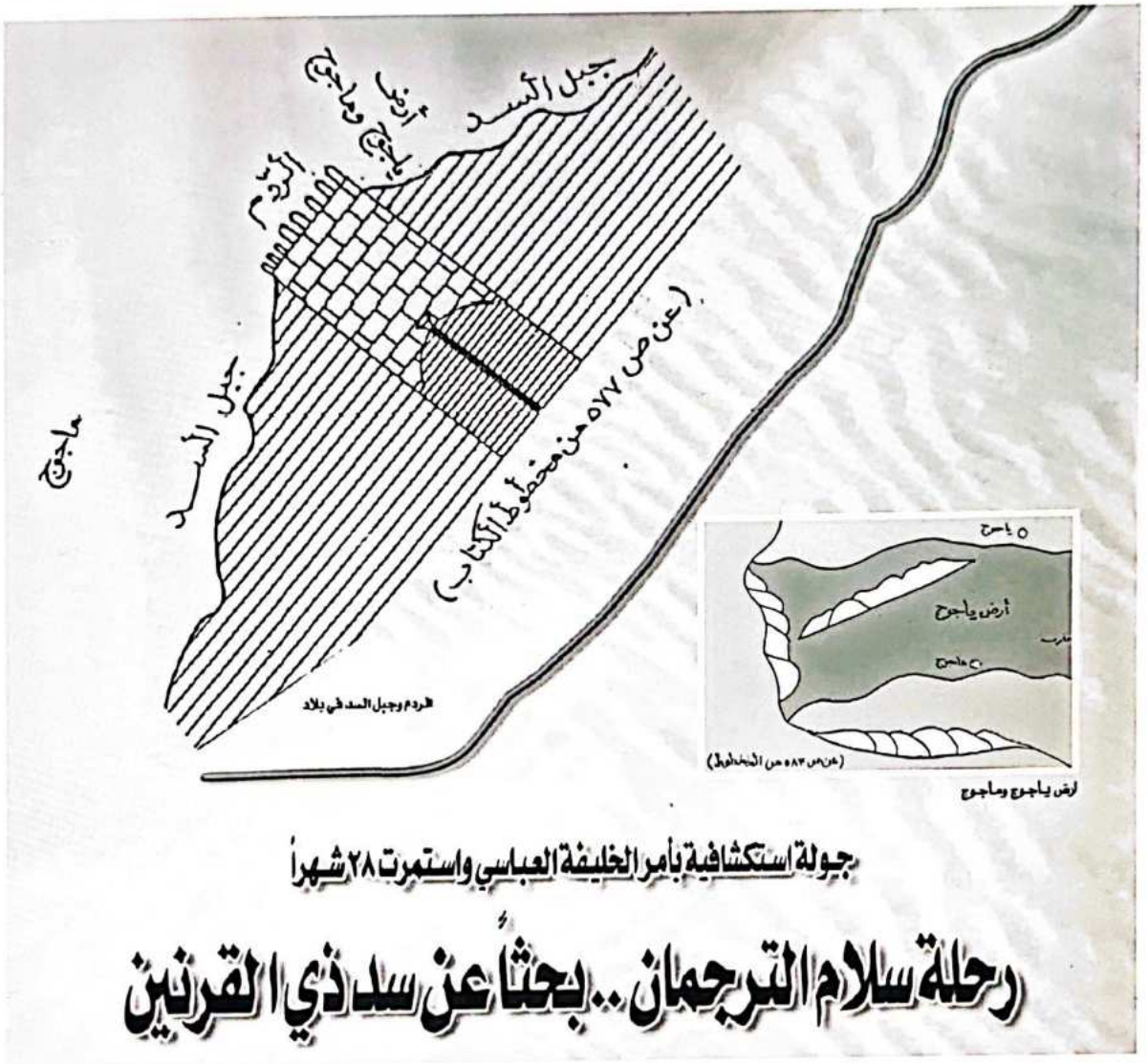

شكل (12) السد كما رسمه الشريف الإدريسى بناء على رحلة سلام الترجمان

ومما ورد في الكتاب:

«إن الواثق باللّه لما رأى في المنام أن السد الذي بناه ذو القرنين بيننا وبين يأجوج ومأجوج مفتوحًا، أحضر سلامًا الترجمان، الذي كان يتكلم ثلاثين لسانًا، وقال له: اذهب وانظر إلى هذا السد وجئني بخبره وحاله وما هو عليه».

وقد استغرقت الرحلة ستة عشر شهرًا للذهاب، واثني عشر شهرًا في

العودة. وكان سلام الترجمان قد اتجه شمالًا حتى وصل إلى منطقة جبال أرمينية، وشاهد في رحلته أرضًا سوداء منتنة الرائحة وأراضٍ خربة من فعل يأجوج ومأجوج! وشاهد أقوامًا يتحدثون العربية وآخرين يتحدثون الفارسية، حتى وصل إلى مدينة يُقال لها «أيكه»، وكانت آخر مدينة يصل إليها قبل أن يصل إلى مكان السد بعد ثلاثة أيام من المسير. واستفاض سلام في وصف السد فقال:

«والسد الذي بناه ذو القرنين هو فج بين جبلين عرضه مئتا ذراع، وهو الطريق الذي يخرجون منه، فيتفرقون في الأرض، فحفر أساسه ثلاثين ذراعًا، وبناه بالحديد والنحاس، ثم رفع عضادتين مما يلي الجبل»، إلى آخر الوصف الذي ورد في الكتاب(24).

وقد أضاف سلام بعض التفاصيل غير المنطقية في محاولة منه لإثبات أن ما رآه هو سد يأجوج ومأجوج فقال: «ورئيس تلك الحصون يركب في كل يوم اثنين وخميس، وهم يتوارثون ذلك الباب كما يتوارث الخلفاء الخلافة، وعلى مصراع الباب الأيمن مكتوب: «فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقا»!

وحقيقة الأمر أن ما وصفه «سلام الترجمان» ما هو إلا أحد الحصون المتعددة المنتشرة في منطقة جبال القوقاز، وأغلب الظن أنه قصد حصن «دربند»، والموجود حاليًا بين أذربيجان وداجستان جنوبي روسيا. وتسمى هذه الحصون في بعض المصادر باسم «بوابات الإسكندر الأكبر»، حيث

روى البعض أن الإسكندر الأكبر هو الذي بناها لمنع قبائل البربر الشمالية من غزو الجنوب. والثابت تاريخيًا أن هذه الحصون لا علاقة لها مطلقًا بيأجوج ومأجوج ولا بالإسكندر الأكبر. فقد بناها الفرس في عصور لاحقة، وتحديدًا في عصر العائلة الساسانية، حيث أسس الشاه كوادا وابنه كسرى الأول المدينة، وبنوا حصنًا ضخمًا، أطلقوا عليه حصن دربند؛ ليسد الممر الفاصل بين بحر قزوين وسلسة جبال القوقاز، وكان ذلك في عام 438 ميلاديًا (أي قبل ميلاد الرسول ﷺ بمائة وثلاثة وثلاثين عامًا فقط).

وكلمة «دربند» باللغة الفارسية مكونة من مقطعين «دار» وتعني البوابة و«بيند»، وتعني القفل، والاسم يدل على طبيعة الحصن. وقد احتل العرب مدينة دربند في عام 735 ميلاديًا، أي بعد ثلاثة عشر عامًا من رحلة سلام الترجمان، وغزوا البلدان التي تلي السد، وتحولت المدينة إلى إمارة إسلامية، ومركزًا تجاريًا هامًا إلى أن سقطت في يد الدولة السلجوقية عام 1071 ميلاديًا. وهذا يدل على عدم صحة ما ورد في الحكاية المتداولة.

وفضلًا عن سد دربند، ظن البعض أن بقايا البناء المشهور في مدينة جرجان شمالي إيران والمعروف باسم «حائط الإسكندر»، أو «سور جرجان العظيم» «The Great wall of Gorgan» هو سد يأجوج ومأجوج. والحقيقة أن هذا الحائط لا يمت أيضًا بصلة إلى الإسكندر المقدوني، بل يعود بناؤه إلى «الإشكانيين»، والذين حكموا فارس بين عامي 249 ق.م. و226 ميلاديًا. وقد بُني على غرار سور الصين العظيم، وفي نفس العصر

تقريبًا، ولكنه قد تهدم في أغلب الأجزاء، ولم يتبق منه سوى أثر بسيط. وهذا ينفي كونه سد يأجوج ومأجوج الذي سينهار قبيل الساعة.

وقد أثار سور الصين العظيم «The Great wall of China» خيال الكثير من الباحثين المعاصرين، واعتقد بعضهم أنه سد يأجوج ومأجوج. خاصة وأن السور قد بُني ليحمي الصينيين من غارات قبائل الشمال، كما أن مساحة السور الكبيرة والشاسعة جعلته من عجائب الدنيا السبع.. والثابت تاريخيًا أن سور الصين العظيم قد أُنشئ على مراحل بدأت في القرن الخامس قبل الميلاد، واكتمل تمامًا في عام 206 ق.م، وقد هُدم السور وأُعيد بناؤه عدة مرات في مراحل تاريخية متعاقبة، ويعد الإمبراطور «كين شي هوانج» الذي وحد الصين عام 221 ق.م هو صاحب النصيب الأكبر في بناء السور الموجود حاليًا.

تفسير المؤلف لسد يأجوج ومأجوج:

يقول تعالى: {قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ٩٤ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ٩٥ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ٩٦}

تتميز آيات القرآن الكريم بالدقة المتناهية، التي تصل إلى درجة الإعجاز

في اختيار اللفظ الذي يناسب مقام الكلام في كل موضع من مواضع القرآن الكريم. وذاك أمر بديهي؛ لأنها آيات بينات من لدن حكيم عليم. وحينما نتدبر الآيات التي ورد فيها ذكر سد يأجوج ومأجوج، نجد أن القرآن الكريم استخدم لفظين متقاربين الأول هو كلمة «**سد**»، وذلك حينما طلب القوم الذين لا يكادون يفقهون قولا من ذي القرنين أن يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حاجزًا ليقيهم شرّهما. والثاني هو كلمة «**ردم**»، وذلك حينما وافق ذو القرنين على معاونتهم. وتغيير اللفظ عند إجابة الطلب لا يمكن أن يحدث دون دلالة، وإلا كان الأولى أن تكون الإجابة عن طلبهم فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم سدا، ولكن القرآن الكريم استخدم كلمة «**ردمًا**» بدلًا من كلمة «سدًا» في إجابة الطلب، وهذا يدل على أن ما صنعه ذو القرنين ليحجز يأجوج ومأجوج كان ردمًا ولم يكن سدًا.

ودليل آخر على أن ما صنعه ذو القرنين كان ردمًا ولم يكن سدًا، هو استخدام نفس اللفظ في حديث رسول الله ﷺ عن زينب بنت جحش، الذي جاء فيه: «وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ»، ورسول الله لا ينطق عن الهوى عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

ورغم تقارب المعنى في كلمتي السد والردم، إلا أن هناك فارقًا دقيقًا بين الاثنين كما سبق وذكرنا في الفصل الأول. فالسد كما ورد في المعاجم هو ما يسد به، وهو كل حاجز بين شيئين. أما الردم فهو ما جعل بعضه فوق

بعضه، مثل ردم البئر وردم الحفرة من الأرض إلى آخره. وأهمية ذلك أنه ليس من الضروري عند البحث عن سد يأجوج ومأجوج أن نبحث فوق سطح الأرض عن حصن كبير أو سور أو بوابة، فمن الممكن أن يكون ما صنعه ذو القرنين ردمًا لحفرة، يحاذي مستوى سطح الأرض أو يزيد عنها قليلًا، ومثل هذا البناء قد تغطيه الرمال (أو الجليد) بمرور الزمن، فلا يستدل عليه، وهذا قد يفسر لماذا لم يعثر أحد على سد يأجوج ومأجوج حتى الآن.

ولكي نطبق هذا المعنى على تأويلنا بأن يأجوج ومأجوج هم البراكين والفيضانات، يستلزم الأمر أن نوضح الطبيعة الجغرافية ومظاهر الحياة في القرى التي تجاور البراكين، ولا سيما في المنطقة القطبية الشمالية.

فقد يبدو غريبًا للوهلة الأولى أن ترغب بعض الشعوب في السكنى إلى جوار البراكين مع ما تحمله هذه البراكين من مخاطر جمة في حال انفجارها. ولكن العجب يزول حينما نعلم أن الحياة إلى جوار البراكين لا تخلو من منافع عدة لهذه الشعوب مثل خصوبة التربة، وتوافر المياه الكبريتية الحارة، والحصول على المعادن بأنواعها مثل الحديد والنحاس والذهب والزنك والفضة وغيرها. ولهذا ينتشر التعدين إلى جانب الزراعة في كثير من المناطق البركانية. وفي قصة ذي القرنين: حينما طلب من أهل القرية الحديد لبناء السد، وجده متوافرًا، وهذا يدل على أنه كان في أرض لا تجهل المعادن والتعدين.

وبجانب المكاسب المادية، يسكن الناس بجوار البراكين بسبب

المعتقدات الروحية والدينية، وهناك عشرات الأساطير القديمة التي تُروى عن البراكين، لا سيما في منطقة القطب الشمالي الساحرة بطبيعتها والمخيفة في آن واحد.

وتظل الحياة بجوار البراكين آمنة لمئات وآلاف السنين طالما لم يحدث نشاط للبركان، وطالما كانت المسافة بين البركان والقرية آمنة. وتختلف هذه المسافة قطعًا طبقًا لحجم البركان وقدرته على قذف الحمم. وقد قدر العلماء أن الابتعاد بمسافة 10 كيلومترات عن البراكين يعد مسافة آمنة لإقامة المستوطنات، ولكن هذا لا يمنع أن هناك مستوطنات أُقيمت في أماكن كثيرة بالقرب من فوهات البراكين الخامدة، مثل مدينة عدن في اليمن، ومدينة هركولانيوم التاريخية في بومبي في إيطاليا، والتي أُبيدت مع انفجار بركان فيزوف عام 79 ميلاديًا.

ولكن ماذا يفعل سكان المدن والقرى حين يبدأ البركان في نفث دخانه الأبيض، منذرًا بقرب النشاط خصوصًا إذا كانت القرى على مسافة غير آمنة من البركان؟

جرى العرف أن تُخلى هذه القرى، أو أن تُصنع حواجز تسمى «حواجز الحمم» أو «volcanic lava barrier» على الأخاديد البركانية ومسارات الحمم التي تصل إلى تلك القرى كي تحجز الحمم بعيدًا عنها. وهذه المسارات والأخاديد معروفة، خصوصًا إذا كان هذا البركان قد نشط من قبل. وهو أمر يشبه مخرات السيول والأمطار في الجبال والوديان.

وفي تقرير شيق نشرته إذاعة بي بي سي البريطانية في عام 2014 بعنوان «كيف نوقف تدفق الحمم؟»، تحدث التقرير عن انفجار بركان جبل إنتا (Mount Enta) في إيطاليا عام 1983، وكيف نجحت «حواجز الحمم» في إبعاد الفيض البركاني من الوصول إلى ثلاث قرى مأهولة بالسكان، حيث بُنيَت ثلاثة حواجز من الردم الصخري بارتفاع 18 مترًا وسمك 3 أمتار، وللأسف نجح اثنان فقط، بينما تجاوزت الحمم الحاجز الثالث، وتسببت في خسائر فادحة(25).

أما صحيفة الجارديان، فقد نشرت بتاريخ 11 مارس 2024 تقريرًا موثقًا بفيلم تسجيلي عن انفجار بركان أيسلندا الأخير. وقد عنونت المقال بقولها: «حواجز البراكين نجحت في دفع الحمم بعيدًا عن قرية الصيادين»، وتحدثت كيف استطاعت حواجز البراكين إنقاذ 30 ألف نسمة في هذه القرية(26).

ونحن نرجح أن يكون ذو القرنين أول من قام بهذا العمل. ويمكننا أن نفسر سد ذي القرنين حينئذ بأنه ردم أقيم على إحدى هذه الأخاديد ليغير مسار الحمم، أو ليحجز الفيضانات عن قرية من هذه القرى. وأغلب الظن أن أهل هذه القرية قد رأوا أبخرة تتصاعد من إحدى الفوهات البركانية المجاورة لهم، وخشوا أن تحمل الأخاديد البركانية الحمم والفيضانات إلى قريتهم إذا انفجر البركان. فطلبوا من ذي القرنين أن يقيم لهم سدًا وقاية لهم من هذا الخطر. شكل (13)

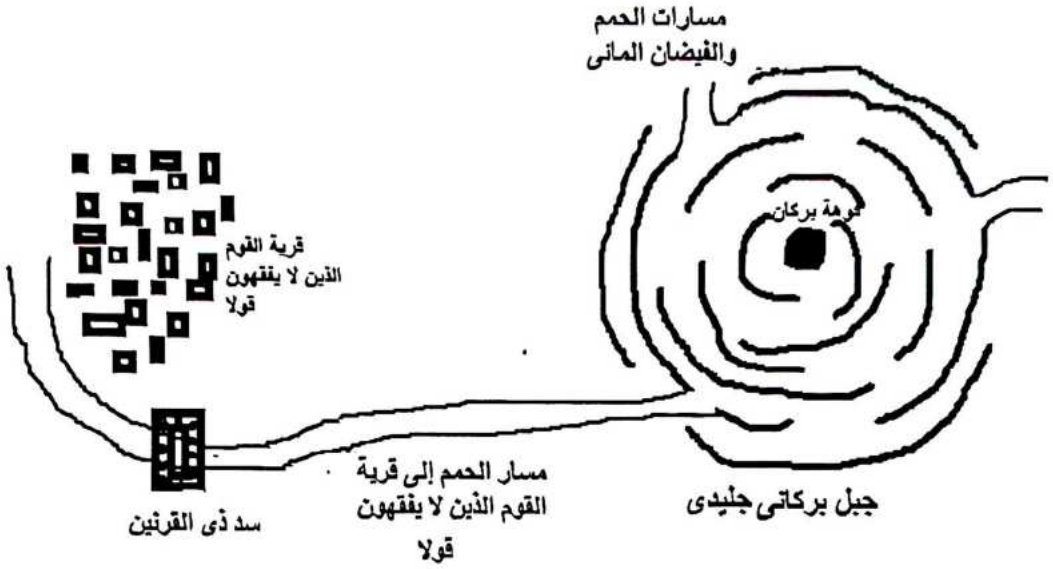

شكل (13) تخيل لردم ذي القرنين

ويتفق هذا الرأي مع دلالات كثيرة في الآيات الكريمة منها ما يلي:

1. البناء في هذه الحالة يقوم بوظيفة السد؛ لأنه يحجز الفيضانات والحمم كما أنه قد بدأ من مستوى منخفض عن سطح الأرض ثم علا به، وهذا يتفق مع وصف القرآن له مرة بالسد على لسان القوم، ومرة أخرى بالردم على لسان ذي القرنين.

2. المكونات التي استخدمها ذو القرنين في البناء «الحديد والنحاس» أو «الحديد والقصدير» -على اختلاف في معنى القطر- يكثر تواجدهما في المناطق البركانية، وتؤدي إلى تكوين سبائك من نوع خاص. فالمزيج الأول يصنع سبيكة البرونز الصلدة، والمزيج الثاني يصنع سبيكة الستانلس ستيل أو الحديد مقاوم الصدأ. وكلاهما يقاوم الحرارة العالية وملوحة المياه.

فدرجة حرارة اللافا من 700 إلى 1000 درجة مئوية، أما درجة ذوبان الحديد فمن 1200 إلى 1500 درجة مئوية. ونحن نرجح أنها سبيكة من الحديد والقصدير لأسباب تتعلق بالشخصية التي نرى أنها شخصية ذي القرنين.

3. يقول تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا}. وفي لسان العرب كلمة الصدف: الجانب أو الناحية. وقد فسر بعض المفسرين الصدفين بأنهما الجبلان وقالوا إن ذا القرنين ملأ المساحة ما بين الجبلين اللذين مر بينهما بالحديد حتى يصنع السد، وفي هذا مبالغة غير معقولة. ونحن نرى أن كلمة «الصدفين» تحمل دلالة أخرى على تأويلنا عن يأجوج ومأجوج وطبيعة الردم الذي قام به ذوُ القرنين. فالصدف هو الغشاء أو القشرة، وصدفة اللؤلؤة هي محاراتها وقشرتها. وهذا المعنى يتماشى مع جانبي الأخدود المصنوعة من قشرة صلدة ملساء من الأملاح البيروكلاستية. وعلى هذا يكون ذو القرنين قد ساوى بالردم بين جانبي الأخدود -الذي لا يزيد عن عشرات الأمتار- ثم أشعل الأكيار ليذيب الحديد ثم أفرغ عليه القطر. ورغم عبقرية الفكرة إلا أنها قابلة للتطبيق عمليًا حتى وإن كانت بإمكانات محدودة في عصر ذي القرنين.

4. قال تعالى: {**فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا**}. تدل الآية على أمرين: أولًا الطبيعة الفيضانية ليأجوج ومأجوج في قوله: «يظهروه»، أي يفيضوا فوق السد. وثانيًا: الطبيعة الخارقة أو الحارقة ليأجوج ومأجوج في قوله: «نقبا» أي خرقا. والسد الذي بُني بالمواصفات التي وردت في

الآيات الكريمة له القدرة على تحمل هاتين الطبيعتين.

وخلاصة رأينا في السد أن ذا القرنين لم يبنِ حائطًا ولا حصنًا ليحجب يأجوج ومأجوج عن القوم الذين لا يكادون يفقهون قولًا، وإنما صنع ردمًا من سبيكة صلدة من الحديد والقصدير، غطى بها أخدودًا بركانيًا كان مصدرًا لتهديد هؤلاء القوم. وقد يكون هذا الردم مطمورًا تحت أطنان من الثلج الآن، ولهذا لم يستطع أحد من الباحثين العثور على موقع هذا الردم حتى هذه اللحظة.

ويجدر بنا أن نشير إلى أن الحادثة التاريخية التي وردت في سياق قصة ذي القرنين، تشير إلى حدث بركاني، يخص هذه المنطقة وحدها، أما خروج يأجوج ومأجوج في آخر الزمان فهو حدث عام فيه انفجارات لبراكين متعددة، في آن واحد، ولن يقف الحاجز الذي أقامه حائلًا أمامه ولهذا قال: {قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا}، والله تعالى أعلم.

وبعد أن تحدثنا عن السد، نتحدث الآن عن شيء آخر، ورد ذكره في قصة ذي القرنين، وله علاقة بتأويلنا عن يأجوج ومأجوج وهو العين الحمئة.

(٥)

العين الحمئة

يقول تعالى في حديثه عن ذي القرنين: {حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا}.

كان الاعتقاد الفلكي السائد في أغلب العصور القديمة هو «مركزية الأرض» في الكون، وهو ما يعني دوران الشمس وغيرها من الكواكب حول الأرض. وظل هذا الاعتقاد سائدًا حتى قدّم كوبرنيكوس نموذجه للنظام الشمسي الحالي في القرن السادس عشر الميلادي.

وقد آمنت الكثير من الشعوب القديمة بأساطير ومعتقدات مختلفة عن حركة الشمس حول الأرض، ولا سيما ظاهرتي الشروق والغروب. فاعتقد الإغريق أن إله الشمس «هليوس» يقود عربته عبر السماء من الشرق إلى الغرب، وآمن المصريون القدماء بأن إله الشمس «رع» يقود قاربه عبر السماء من الشرق إلى الغرب. أما الإسكيمو -الذين كانوا يرون الغروب والشروق مرات معدودة في العام- كانوا يعتقدون أن إلهة الشمس «أورورا» تغيب عبر الأفق الشمالي، وليس من الغرب، في قاربها تاركة خلفها أضواء الشفق القطبي، المعروفة كذلك باسم الأورورا (Arura).

أما العرب قبل الإسلام فقد كانوا يعتقدون أن للشمس مسكنًا في

الأرض، تمكث فيه ليلًا ثم تعود إلى الظهور مرة أخرى مع شروق يوم جديد. وقد وردت روايات كثيرة وأشعار من الشعر الجاهلي تشير إلى إيمان اليهود والعرب قبل الإسلام بأن غروب الشمس يحدث في عين ماء أو طين. منها ما ورد في كتاب «الدر المنثور» أن معاوية أرسل إلى كعب الأحبار، الذي اعتنق اليهودية قبل إسلامه، وسأله: أين تجد الشمس تغرب في التوراة؟ قال: أجد الشمس في التوراة تغرب في ماء وطين.

وحينما نزل القرآن الكريم على نبينا محمد ﷺ جاءت آياته التي تتحدث عن الفلك والظواهر الكونية نموذجًا للإعجاز العلمي والإعجاز الخطابي على حد سواء. فقد كانت الآيات تحملُ الكثير من الحقائق العلمية، ولكنها في ذات الوقت تخاطب البدوي البسيط بما يتسق مع قدرته على الاستيعاب والقبول. ولهذا لا نعجب من أن آيات القرآن الكريم المتعلقة بالفلك قد فُسِّرت في كل عصر بقدر ما وصلت إليه علوم البشر في ذلك العصر، ورغم ذلك كان التفسير مقبولًا وصالحًا في كل عصر من هذه العصور. فمثلًا قول الله تعالى: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}، فسره العرب قديمًا على أن الشمس تنتهي عند الغروب إلى مكان ما على الأرض لتستقر فيه، ثم تعاود الظهور مرة أخرى عند الشروق. وحينما زاد علم الإنسان بالفلك فُسِّرت على أن الشمس ليست في حالة ثبات، ولكنها تدور مع المجموعة الشمسية في أفلاك أكبر وأعظم، ولهذا قال الله عن الشمس والقمر في نفس السورة: {لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ

سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ}. أي أن الشمس تتحرك مثلها مثل باقي الكواكب في فلك خاص بها. وأعجب العجب هو ما أثبته علماء الفلك حديثًا من أن شمسنا تسير نحو غاية أو «مستقر»، أطلق عليه العلماء اسم «Solar apex(27)» أو «Apex of the sun's way»، والذي يُترجم حرفيًا إلى «منتهى الطريق الشمسي». ونطالع في موسوعة بريطانيكا أن هذا «المستقر» هو الغاية الذي تسير نحوه شمسنا في مجرة درب التبانة. والله تعالى أعلم.

وحينما نزل قول الله تعالى: {وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٍ} ظن العربي البدوي البسيط أنها تعني أن الشمس تغرب في عين ماء، تماشيًا مع ما كان يعتقده قديمًا. ولكن المفسرين المسلمين -الأكثر علمًا- أخذوا بالمعنى المجازي للآية وقالوا إنه رأى الشمس تغرب في الماء، كمن يقف على شاطئ البحر فيرى غروب الشمس فيه.

قال القرطبي في تفسيره: «ليس المراد من أنه قد انتهى إلى الشمس مغربًا أنه قد وصل إلى جرمها ومسّها؛ فهي أعظم من أن تدخل في عين من عيون الأرض، بل هي أكبر من الأرض أضعافًا مضاعفة، ولكن المراد أنه انتهى إلى آخر العمارة من جهة المغرب، فوجدها في رأي العين تغرب في عين حمئة». وذكر بن كثير في تفسيره: «أنه رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله، يراها كأنها تغرب فيه».

ونحن نرى في هذه الآية الكريمة إعجازًا لغويًا وبيانيًا سنورده في الفقرات الآتية. ونبدأ بالمعنى اللغوي للعين الحمئة حيث ذكرت كتب التفاسير أن كلمة «**حمئة**» تحمل معنيين مختلفين. الأول أنها كانت عين حامية أي تحوي ماءً ساخنًا، والثاني أن هذه العين كانت عين طينية من «الحمأ»، أي الطين الساخن أو الفخار كما ورد في قول الله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ}. وهذا الوصف الذي ذكره القرآن الكريم هو وصف دقيق لما يعرف علميًا باسم البحيرة البركانية (crater lake). حيث تتجمع مياه الينابيع الحارة في شكل بحيرة كبيرة عقب انفجار البراكين. ثم تتجمع الرواسب البركانية والطين البركاني حول تلك البحيرة لتكون حاجزًا من الطين البركاني الصلد يعرف باسم الكالديرا (Caldera)، ولهذا تطلق بعض المراجع العلمية على هذه البحيرات اسم بحيرات الكالديرا أو «Caldera Lake».

وبالبحث عن معنى كلمة «كالديرا» في اللغة نجد أنها كلمة إسبانية الأصل، تعني آنية الطبخ أو الطعام (cooking pot) المصنوعة من الفخار (الحمأ)، كما أن الكلمة نفسها تُطلق على غلاية الماء أو المرجل. وهذا يتطابق مع الوصف القرآني. ولكي يستطيع الإنسان أن يرى غروب الشمس داخل مسطح مائي ينبغي أن يكون هذا المسطح كبير الحجم. وبالفعل نجد أن بعض هذه البحيرات قد تصل مساحتها إلى مئات الكيلومترات، مما يهيئ للواقف على شواطئها رؤية غروب الشمس داخل مياه البحيرة. ومثل

هذه البحيرات الضخمة نجدها في أمريكا وأيسلندا وأوروبا وغيرها من الأماكن التي يكثر فيها النشاط البركاني. أما الإعجاز التاريخي في هذه الآية من وجهة نظرنا، فهو التضافر والتشابك بين أحداث رحلة ذي القرنين إلى مغرب الشمس، وبين أحداث رحلة الشخص الذي نعتقد أنه صاحب شخصية ذي القرنين. فالأحداث التي أفصحت عنها الآية الكريمة تتكامل مع الأحداث التي وردت إلينا عن رحلة هذا الرجل، حتى إن فهم الأحداث تاريخيًا لا يكتمل إلا بفهم وتحليل النص القرآني. وسيرد تفصيل هذا في الفصول التالية إن شاء الله.

(٦)

جوج وماجوج في العهد القديم

يضم العهد القديم عددًا من الأسفار التي نسبت إلى أنبياء بني إسرائيل أو بعض تلاميذهم، على مر العصور: وتعرف هذه الأسفار مجمعة باسم العهد القديم. وبيانها على النحو التالي:

- **أسفار موسى:** وهي الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم، وتضم سفر التكوين، سفر الخروج، سفر اللاويين، سفر العدد وسفر التثنية. وتحتوي على قصة الخلق وخروج بني إسرائيل من مصر، وأحكام القرابين والفرائض والحدود والأنساب والأعداد.

- **الأسفار التاريخية:** مثل سفر يشوع، وسفر القضاة الأول والثاني، وسفر الملوك، وسفر راعوث، وسفر إستير وغيرها.

- **الأسفار النبوية:** وهي الأسفار التي كُتبت قبل وبعد السبي البابلي مثل: أسفار إشعيا وأرميا وحزقيال ودانيال وغيرهم.

- **الأسفار الشعرية:** مثل سفر أيوب والمزامير وسفر نشيد الأناشيد والأمثال وغيرهم.

وفي الوقت الذي يتفق فيه جميع اليهود على القدسية الحرفية للأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم، نجد أن بعض الأسفار الأخرى لا تلقى

نفس القدر من الاتفاق على قدسيتها، فهناك أسفار مثل سفر المكابيين الأول والثاني، وسفر يهوديت وطوبيا وغيرهم، لا يعترف بها اليهود ولا الطوائف البروتستانتية المسيحية ككتب مقدسة، ويطلق عليها اسم (أبوقريفا) أو الأسفار المدسوسة أو المشكوك فيها؛ لأنها لم تكن ضمن الأسفار التي جمعها عزرا الكاتب. عند كتابة التوراة عام 534 ق.م. ويمتد الاختلاف إلى بعض الإصحاحات في بعض الأسفار، ولا سيما الأسفار النبوية مثل سفر إشعيا وحزقيال، وهي أسفار كُتبت في ظروف سياسية خاصة، وامتلأت بنبوءات مستقبلية أثار بعضها جدلًا حول زمن كتابتها وشخصية كاتيبها، وهل أضيفت إلى أسفار الأنبياء في وقت لاحق أم لا، ومنها على سبيل المثال سفر حزقيال الذي وردت فيه نبوءة جوج وماجوج، التي بين أيدينا، والذي قال عنه المفكر اللاهوتي حبيب سعيد في كتابه «المدخل إلى الكتاب المقدس»، الصادر عن الكنيسة الأسقفية بالقاهرة(28): «وإن الرأي السائد بين الخبراء، وعلماء الكتاب أن بعض أجزاء في هذا الكتاب كتبتها أيدٍ في تاريخ متأخر، وأن حزقيال لم يضع السفر كله في وضعه الحالي الذي بين أيدينا».

وقد ذهب المفكر حبيب سعيد إلى أن أغلب الإصحاحات المشكوك في أمرها في سفر حزقيال هي في القسم الأخير من السفر، وهي الإصحاحات التي نجد فيها نبوءة جوج وماجوج.

ونحن نرى أن الكثير من الأفكار المغلوطة التي تسللت إلى التراث

(٦) جوج وماجوج في العهد القديم - صفحة 120/ 235

الإسلامي، والتي عُرفت إجمالا باسم «أخبار آخر الزمان» مصدرها هي نبوءات سفر حزقيال، أو بمعنى أدق تأويلات اليهود لها، والتي نقلها إلى الفكر الإسلامي كعب الأحبار، وكذلك وهب بن مُنَبِّه الذي قال عنه الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء: «وإنما غزارة علمه كانت في الإسرائيليات، ومن صحائف أهل الكتاب».

وقبل أن نعرض تفاصيل النبوءة، سنتعرض لسفر حزقيال ببعض التفصيل.

سفر حزقيال:

ينسب هذا السفر إلى النبي حزقيال، الذي ولد في أورشليم عام 623 ق.م. وعاش فيها متأثرًا بتعاليم النبي أرميا، وخدم في الهيكل حتى صار كاهنًا، وحين بلغ الخامسة والعشرين من عمره، وقع هجوم نبوخذ نصر على أورشليم، ورأى بعينه دمار المدينة، وهدم الهيكل، ثم حُمِل ضمن الآلاف الذين هُجِّرُوا إلى بابل فيما عرف بالسبي البابلي. وطبقًا لما ورد في السفر نفسه، فإن حزقيال قد أُوحِي إليه في السنة السادسة من السبي ليصبح نبي اليهود، وكان اليهود يأتون إلى بيته في بابل لاستشارته في أمور دينهم (حزقيال 1:8). ويرجح علماء الكتاب المقدس أن السفر قد كُتِب بين عامي 593 إلى 572 ق.م، وينقسم السفر إلى أقسام ثلاثة:

- **القسم الأول:** يندد بخطايا وآثام بني إسرائيل، وينذرهم بالعقاب.

- **القسم الثاني:** يتحدث عن رؤى عن الدول والممالك المجاورة لإسرائيل

مثل عمون، وأدوم، وصور، والفلسطينين ومصر، وكلها رؤى خراب ودمار لهذه البلدان.

- **القسم الثالث:** به أحلام العودة إلى أورشليم(29).

وكل إصحاحات السفر إما إلقاء باللوم أو تبشير بمستقبل مختلف، وهذا أمر طبيعي لمجموعة من البشر فقدت كل شيء ولا تملك سوى العزاء بمثل هذه الأمنيات. وفي القسم الأخير من السفر توجد نبوءتان في الإصحاحات 37 و38 و39، كنبوءتين لآخر الزمان وهما نبوءة «إحياء عظام بني إسرائيل»، و«نبوءة جوج وماجوج». وكلتا النبوءتين تُسْتَغَلَّان حتى الآن من اليهود لتحقيق مكاسب سياسية.

تقول النبوءة الأولى الخاصة بإحياء عظام بني إسرائيل: «يَا ابْنَ آدَمَ، هذِهِ العِظَامُ هِيَ كُلُّ بَيتِ إِسْرَائِيلَ. هَا هُمْ يَقُولُونَ: يَبِسَتْ عِظَامُنَا وَهَلَكَ رَجَاؤُنَا. قَدِ انْقَطَعْنَا. لِذلِكَ تَنَبَّأْ وَقُلْ لَهُمْ: هكذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: هأَنَذَا أَفتَحُ قُبُورَكُمْ وأُصْعِدُكُمْ مِنْ قُبُورِكُمْ يَا شَعْبِي، وَآتِي بِكُمْ إِلَى أَرْضِ إِسْرَائِيلَ. فَتَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ عِنْدَ فَتْحِي قُبُورَكُمْ وَإِصْعَادِي إِيَّاكُمْ مِنْ قُبُورِكُمْ يَا شَعْبِي. وأَجْعَلُ رُوحِي فِيكُمْ فتَحْيَوْنَ، وَأَجْعَلُكُمْ فِي أَرْضِكُمْ، فَتَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ تَكَلَّمْتُ وَأَفْعَلُ، يَقُولُ الرَّبُّ» (حزقيال 37: 11-14)

فالنبوءة تشير إلى عودة بني إسرائيل مجددًا إلى بيت إسرائيل بعد تقطعهم وتشرذمهم في الأرض. وقد وظفت هذه النبوءة مع نبوءة كورش

التي وردت في سفر إشعيا، لعودة بني إسرائيل من السبي البابلي، وسنتحدث عن ذلك لاحقًا، ولكن الأعجب والأغرب أنه قد أُعِيد تدوير هذه النبوءة مرة أخرى في العصر الحديث من قبل الجماعات الصهيونية لإقناع اليهود بالعودة من الشتات، وإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين، وساند هذه الفكرة بعض الكنائس الإنجيلية التي كانت ترى أن عودة المسيح الثانية مرتبطة بعودة اليهود إلى أورشليم. وجدير بالذكر أن القس وعالم اللاهوت «جورج بوش»، وهو من عائلة جورج بوش رئيس الولايات المتحدة الأسبق، كان من أوائل علماء الدين المسيحي الذين دعوا إلى ضرورة إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين تحقيقًا لهذه النبوءة. وكان ذلك تحديدًا في عام 1844، حين نشر كتابًا آنذاك بعنوان:

«The Valley of Vision; or The Dry Bones of Israel revived»

وترجمته «وادي الرؤيا أو إحياء عظام بني إسرائيل». شكل (14)

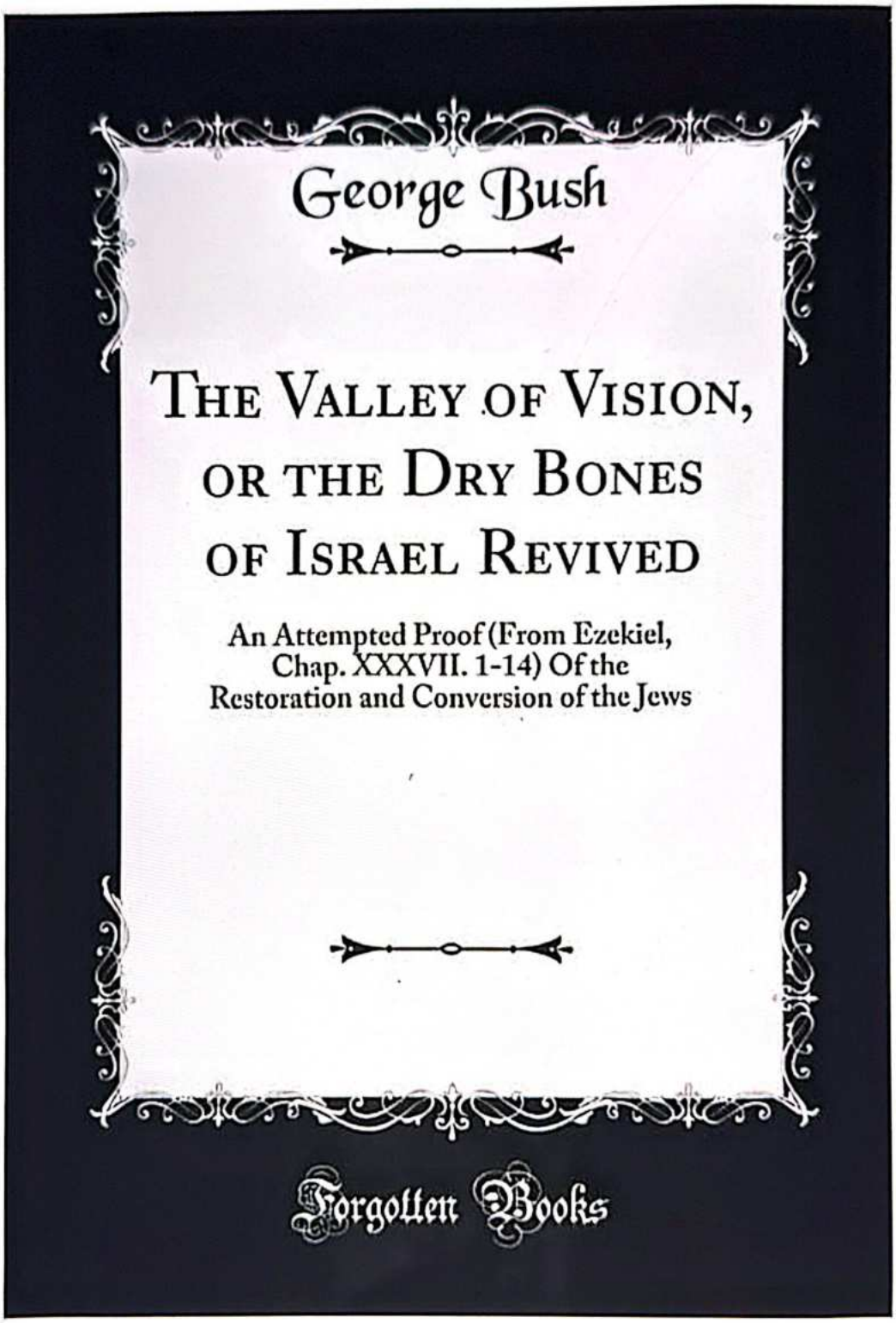

شكل (14) غلاف كتاب جورج بوش الجد عن إحياء عظام بني إسرائيل على موقع أمازون

واعتمد «جورج بوش» الجد على نص نبوءة حزقيال لكي يؤصِّل لفكرة ضرورة إنشاء وطن قومي لليهود تمهيدًا للعودة الثانية للمسيح، وروج لها

عند الغرب وأتباع الكنيسة الإنجيلية في العالم الجديد. وهذا ما أكده جورج بوش الحفيد رئيس الولايات المتحدة، حين قال في مجلة دير شبيجل الألمانية عام 2006: « إنه -أي جورج بوش نفسه- واحد من ستين مليون أمريكي يؤمنون بقرب الولادة الثانية للمسيح».

أما نبوءة جوج وماجوج، في سفر حزقيال، فهي تتحدث عن حرب آخر الزمان أو هرمجدون التي ستقع في «الأيام الأخيرة»، وسيقودها ملك اسمه «جوج» يأتي من أرض ماجوج، وسيصنع جيشًا من أراضي روش (روسيا) وماشك (موسكو) وتوبال (توبولوسك)، فيغشى أرض بني إسرائيل، ويعينه في حربه ضد إسرائيل تحالفًا شريرًا أو (محور الشر)، ويشمل كل من فارس (إيران) وكوش (إثيوبيا) وقوط (ليبيا) وجومر (أوروبا الشرقية) وتوجرمة (تركيا). ويجتاح جيش «جوج» وحلفاؤه أرض بني إسرائيل، حتى يظن الجميع أن أرض الله قد آلت إلى جوج وحلفائه وحينئذ يغضب الرب، ويصعد غضبه إلى أنفه (كناية عن الغضب الشديد) فتندك الجبال، وترعش البحار وتتساقط حمم الكبريت والنار وحجارة البرد والثلج على جوج وجيشه. فيهلك جيش جوج ويتعظم اسم الرب، ويتقدس عند الأمم جميعها. وهذا هو نص النبوءة كما ورد في سفر حزقيال الإصحاح الثامن والثلاثين والتاسع والثلاثين:

«لِذلِكَ تَنَبَّأْ يَا ابْنَ آدَمَ، وَقُلْ لِجُوجٍ: هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: فِي ذلِكَ الْيَوْمِ عِنْدَ سُكْنَى شَعْبِي إِسْرَائِيلَ آمِنِينَ، أَفَلاَ تَعْلَمُ؟ وَتَأْتِي مِنْ مَوْضِعِكَ مِنْ أَقَاصِي

الشَّمَالِ أَنْتَ وَشُعُوبٌ كَثِيرُونَ مَعَكَ، كُلُّهُمْ رَاكِبُونَ خَيْلاً، جَمَاعَةٌ عَظِيمَةٌ وَجَيْشٌ كَثِيرٌ. وَتَصْعَدُ عَلَى شَعْبِي إِسْرَائِيلَ كَسَحَابَةٍ تُغَشِّي الأَرْضَ. فِي الأَيَّامِ الأَخِيرَةِ يَكُونُ. وَآتِي بِكَ عَلَى أَرْضِي لِكَيْ تَعْرِفَنِي الأُمَمُ، حِينَ أَتَقَدَّسُ فِيكَ أَمَامَ أَعْيُنِهِمْ يَا جُوجُ».

وتصف النبوءة الجيش ومن يعاونه قائلة:

«وَأُخْرِجُكَ أَنْتَ وَكُلَّ جَيْشِكَ خَيْلاً وَفُرْسَانًا كُلَّهُمْ لاَبِسِينَ أَفْخَرَ لِبَاسٍ، جَمَاعَةً عَظِيمَةً مَعَ أَتْرَاسٍ وَمَجَانَّ، كُلَّهُمْ مُمْسِكِينَ السُّيُوفَ. فَارِسَ وَكُوشَ وَفُوطَ مَعَهُمْ، كُلَّهُمْ بِمِجَنٍّ وَخُوذَةٍ، وَجُومَرَ وَكُلَّ جُيُوشِهِ، وَبَيْتَ تُوجَرْمَةَ مِنْ أَقَاصِي الشَّمَالِ مَعَ كُلِّ جَيْشِهِ، شُعُوبًا كَثِيرِينَ مَعَكَ. اِسْتَعِدَّ وَهَيِّئْ لِنَفْسِكَ أَنْتَ وَكُلُّ جَمَاعَاتِكَ الْمُجْتَمِعَةِ إِلَيْكَ، فَصِرْتَ لَهُمْ مُوَقَّرًا».

وتصف النبوءة يوم انتقام الرب قائلة:

«يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، أَنَّ غَضَبِي يَصْعَدُ فِي أَنْفِي. وَفِي غَيْرَتِي، فِي نَارِ سَخَطِي تَكَلَّمْتُ، أَنَّهُ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ يَكُونُ رَعْشٌ عَظِيمٌ فِي أَرْضِ إِسْرَائِيلَ. فَتَرْعَشُ أَمَامِي سَمَكُ الْبَحْرِ وَطُيُورُ السَّمَاءِ وَوُحُوشُ الْحَقْلِ وَالدَّبَّابَاتُ الَّتِي تَدُبُّ عَلَى الأَرْضِ، وَكُلُّ النَّاسِ الَّذِينَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ، وَتَنْدَكُّ الْجِبَالُ وَتَسْقُطُ الْمَعَاقِلُ وَتَسْقُطُ كُلُّ الأَسْوَارِ إِلَى الأَرْضِ. وَأَسْتَدْعِي السَّيْفَ عَلَيْهِ فِي كُلِّ جِبَالِي، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، فَيَكُونُ سَيْفُ كُلِّ وَاحِدٍ عَلَى أَخِيهِ. وَأُعَاقِبُهُ بِالْوَبَإِ وَبِالدَّمِ، وَأُمْطِرُ عَلَيْهِ وَعَلَى جَيْشِهِ وَعَلَى الشُّعُوبِ الْكَثِيرَةِ

الَّذِينَ مَعَهُ مَطَرًا جَارِفًا وَحِجَارَةَ بَرَدٍ عَظِيمَةً وَنَارًا وَكِبْرِيتًا. فَأَتَعَظَّمُ وَأَتَقَدَّسُ وَأُعْرَفُ فِي عُيُونِ أُمَمٍ كَثِيرَةٍ، فَيَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ».

وقد اختلف مفسرو الكتاب المقدس في تأويل قصة جوج التي وردت في سفر حزقيال، فرأى البعض أنها نبوءة عن حرب رمزية تمثل الصراع بين الخير والشر، أو صراع إبليس وأعوانه ضد ملكوت الله في الأرض، في حين يرى آخرون أنها نبوءة عن حرب حقيقية(30).

وتتفق الكثير من الأبحاث والكتب الغربية على أن نبوءة معركة «هرمجدون» هي أكثر النبوءات المقدسة شيوعًا، كما نشر مركز «بايلور للأبحاث» الأمريكي(31) أن ربع الشعب الأمريكي يؤمن حرفيًا بهذا الكلام، وأن الغالبية العظمى من عينة البحث تعتبر أن محور الشر الذي سيهاجم إسرائيل، هو تحالف شرير بين الاتحاد السوفيتي والعالم الإسلامي.

وفي كتاب «آخر العماليق» (The last of Giants) للكاتب «جورج أوتيس(32)»، والذي نشره في عام 1991 نجده يقول: «إن سقوط الشيوعية يثبت نبوءة جوج وماجوج أو معركة هرمجدون؛ إذ كنا نشعر بالحيرة من التحالف المفترض في النبوءة بين الروس الملحدين والعرب المسلمين، ولكن سقوط الشيوعية سيمهد لانتشار الإسلام وزيادة عدد المسلمين في الاتحاد السوفيتي المنهار، وسيكون غزو إسرائيل من الشمال هو الجهاد الأخير للمسلمين تحت لواء المسيا الكذاب «The anti-

Christ» الذي يبشرون به، والمعروف عندهم باسم المهدي المنتظر».

أما في كتاب «**معركة هرمجدون وتأسيس مملكة الرب في التوراة والإنجيل والقرآن**» يقول الكاتب كارلوتا جيزون(33):

«إن معركة هرمجدون هي معركة دينية بين الإسرائيليين والمسيحيين والمسلمين، والأحداث التي تدور في العالم وبصفة خاصة منذ عام 1991 تمهد المسرح الدولي لمعركة هرمجدون، كما أن المسائل والقضايا الراهنة تشير بوضوح إلى أن هذه المعركة ستحدث عما قريب».

وقائمة السياسيين الذين يؤمنون بمعركة هرمجدون وأشاروا إليها في خطاباتهم كبيرة جدًا، وآخرهم دونالد ترامب، وبنيامين نتنياهو، فكلاهما لا يكف عن الحديث عن محور الشر، وعن الاستشهاد بآيات سفر حزقيال وإشعيا وسفر الرؤيا. وهذا يثبت كيف نجحت تلك الأفكار الدينية المغلوطة، والمشكوك في كتابتها في التحكم في سياسات العالم وتوظيفها من أجل تأجيج الصراعات، والحصول على مكاسب سياسية. وإليك بعض الأمثلة لكي تتأكد أن الأمر متأصل في التحالف الصهيو-أمريكي منذ عقود. ففي الخامس من أغسطس عام 1912 قال الرئيس الأمريكي الأسبق ثيودور روزفلت في خطاب لدعم حملته الانتخابية بمدينة شيكاجو: «نحن نقف على أعتاب هرمجدون، وسنحارب من أجل الرب». وفي عام 1980 قال الرئيس الأمريكي رونالد ريجان في لقاء تلفزيوني: «إننا قد نكون الجيل الذي سيشهد هرمجدون».

وبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001، تزايد الهجوم على الإسلام، وانتشرت فكرة الإسلاموفوبيا، وتبنت الكثير من الأقلام الغربية المسيحية، المؤيدة لإسرائيل، فكرة تحالف الشر وقرب هرمجدون تمهيدًا لعودة المسيح. فكتب «جون هاجه» (John Hagee) راعي الكنيسة الإنجيلية بكورنرستون، ومؤسس جمعية «المسيحيون المتحدون من أجل إسرائيل» في كتاب نشره عام 2006 تحت عنوان «العد التنازلي لأورشليم»: «إن كلا من روسيا والدول الإسلامية سيهاجم دولة إسرائيل. ووسط الاشتباكات والحروب التي ستقام ضد الجيوش البريطانية والأمريكية يعود المسيح إلى الأرض، ويؤسس مملكته في أورشليم(34)».

وجدير بالذكر أن هذا القس من أكثر القساوسة الإنجيليين تأثيرًا في الولايات المتحدة الأمريكية. كما أن جمعية «المسيحيون المتحدون من أجل إسرائيل» قد أدت دورا كبيرًا في انتخابات الكونجرس الأمريكي والانتخابات الرئاسية الأمريكية عام 2004.

وبعد غزو العراق صدر كتاب للصحفي الفرنسي كلود موريس بعنوان **«لو كررت ذلك على مسامعي، فلن أصدقه»** وهو عنوان أخاذ ومعبر، وكاشف لمحتواه الصادم. فقد كتب الصحفي: «كان جورج بوش الابن يريد إقناع شيراك بالانضمام للحلف الغربي المقاتل في العراق، ولكن الرئيس شيراك لم يصدق أذنيه وهو يسمع صوت بوش في الهاتف يقول له بالضبط: أنه تلقى وحيا من السماء لإعلان الحرب على العراق لأن يأجوج ومأجوج انبعثا

في الشرق الأوسط للقضاء على الغرب المسيحي! وأضاف بوش: «إن هذا يعني أن نبوءة الإنجيل حول يأجوج ومأجوج بصدد التحقق هناك(35)».

وخلاصة القول إن نبوءة جوج وماجوج في سفر حزقيال، المشكوك في صحتها، قد دُسَّت في الفكر المسيحي المتطرف، كما تسللت إلى السنة من خلال أحاديث ضعيفة تطابقت في بعض الأحيان مع آيات السفر، منها على سبيل المثال عند ابن ماجه من أن المسلمين سيوقدون من أقواس وسهام وتروس «يأجوج ومأجوج» سبع سنين، وهذا مأخوذ نصًا من سفر حزقيال، ولكن مع استبدال المسلمين ببني إسرائيل، وغير هذا من الأمثلة التي ضعفها علماء الحديث.

رأي المؤلف في نبوءة حزقيال:

تنقسم هذه النبوءة إلى قسمين:

القسم الأول وهو قيام حرب كبرى ستشهد تحالفات وتكتلات بين بعض البلدان ضد إسرائيل. وفي التراث الإسلامي نجد الكثير من الأحاديث والروايات عن حروب آخر الزمان، وإن لم يرد في النسخة الإسلامية أن هناك علاقة بين خروج يأجوج ومأجوج وهذه الحرب ضد اليهود. فقد ورد في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود حتى يقول الحجر وراءه اليهودي: تعال يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله!». وفي رواية مسلم: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود حتى

يختبئ اليهودي وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر والشجر: يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله، إلا الغرقد»، والغرقد من شجر اليهود، رواه مسلم.

أما القسم الثاني من النبوءة، فهو عن انتهاء تلك الحرب، بسبب وقوع كوارث كونية مهولة، ستقضي على الحلف العسكري لجوج وأتباعه. ونحن نزعم أن الغالبية العظمى من شارحي النبوءة، والناقلين عنهم قد ركزوا على قيام الحرب، وعززوا الحديث عن القتال والصراع، ولم يلتفتوا إلى هذا الحدث الجلل الذي سيضع أوزار الحرب، ولنقرأ ما أورده حزقيال عن نهاية هذه الحرب في سفره:

1. حدوث زلزال عظيم في أرض إسرائيل: «**إنه في ذلك اليوم يكون رعش عظيم في أرض إسرائيل. فترعش أمامي سمك البحر وطيور السماء ووحوش الحقل والدابات التي تدب على الأرض، وكل الناس الذين على وجه الأرض وتندك الجبال**». وكلمة ترعش أمامي سمك البحر، تدل على امتداد أثر الزلزال إلى البحر، وهو أحد أسباب حدوث موجات المد العاتية، وكلمة تندك الجبال تدل على عنف هذه الهزة الأرضية.

2. سقوط أمطار جارفة وقطع كبيرة من الجليد المذاب مختلطة بالمياه الكبريتية والنيران!: «**وأمطر عليه وعلى جيشه، وعلى الشعوب الكثيرة الذين معه مطرًا جارفًا، وحجارة برَد (ثلج) عظيمة، ونارا وكبريتًا**». وسقوط البرد يدل على موجة صقيع شديدة، وسقوط نار وكبريت إشارة إلى حدوث

انفجارات بركانية.

3. وقوع كارثة بركانية في أرض ماجوج في الشمال، والجزر المحيطة بها، **«وأرسل نارا على ماجوج وعلى الساكنين في الجزائر، فيعلمون أني أنا الرب»**.

ولنا أن نتساءل، إن صحت نبوءة حزقيال، أيهما أعظم وأخطر، قيام الحرب، أم تلك الأحداث المهولة التي ستحدث في كل مكان، في وقت واحد، زلازل، فيضانات، سقوط الحمم، انفجار براكين في أرض الشمال؟ فشتان بين خروج جوج وجيشه كما وصفته النبوءة، وبين نهاية الأحداث في النبوءة نفسها.

ولأن القرآن الكريم جاء كاشفًا لكثير من الأكاذيب التي يدعيها بنو إسرائيل كما قال تعالى: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} (النمل 76)، جاءت حقيقة المحنة في القرآن بعيدة البعد كله عن التفسير الذي وضعه اليهود، والذي صدقه للأسف اليمين المسيحي المتطرف، وتسلل إلى الفكر الإسلامي، حتى اعتبر كل فريق نفسه الفئة الناجية فاليهود ينتظرون المسيا المنتظر، وانتقام الرب من محور الشر من مسلمين وروس، والمسيحيون ينتظرون عودة المسيح وانتقامه من المسيا الكذاب وأتباعه، والمسلمون ينتظرون خروج المهدي المنتظر، وكأن العالم يُساق إلى حتفه من أجل تحقيق نبوءات اخترعها اليهود، واستقطبت المهووسين دينيا، ولا نجد عليها دليلًا في القرآن.

ونحن نرى من خلال التأويل الذي وضعناه، أن المحنة الكبرى التي سيشهدها العالم، من تغير مناخي، وكوارث طبيعية، والتي أخبرتنا عنها الديانات، تستدعي التفكير في طرق الاستعداد لها، وانتهاج سبل العلم لمحاولة الحد من خسائرها. وقد يتساءل أحدنا، وهل يمكن أن يكون العلم مخرجًا من هذه المحنة؟ والإجابة القاطعة هي نعم، خصوصًا إذا كانت قصة ذي القرنين في القرآن تُعلي من شأن العلم والعلماء، وأن هناك شخصًا اسمه ذو القرنين تحلى بالمعرفة ليتصدى لها قديمًا. وهذا هو موضوع الفصل الثالث.

الفصل الثالث

لقاء مع ذي القرنين

(١)

التسمية

وردت في كتب التفاسير تأويلات كثيرة لسبب تسمية ذي القرنين بهذا الاسم، ولعل أشهرها أنه كان يضع تاجًا من نحاس على رأسه له قرنان، فسمي بهما. ونحن نعلم أن كثيرًا من الملوك في التاريخ قد ارتدوا تيجانًا لها قرنان، مثل ملوك الفايكنج والهنود الحمر والفرس والمغول، ولهذا نحن لا نرى في هذا التفسير ميزة تميز ذي القرنين عن غيره. وهناك أقاويل أخرى لا تخلو من الغرابة منها أنه عاش قرنين من الزمان، فسُمِي لذلك ذو القرنين، ومنها ما نُسب إلى الإمام علي رضي الله عنه، من أنه سمي بهذا الاسم؛ لأنه دعا قومه إلى الله، فضربوه على قرنه أي جانب رأسه، فأدار رأسه فضربوه على قرنه الآخر! ومنها أنه كانت له ضفيرتان، وغير ذلك من التأويلات التي لا نجد داعيًا لذكرها نظرًا لغرابتها. ولعل أقرب الأقاويل في رأيي للصحة ما ذكره القرطبي -رحمه الله- في تفسيره، أنه سمي بذي القرنين؛ لأنه طاف مشارق الأرض ومغاربها، وكأنما حاز الدنيا من قرنيها.

ونحن نميل إلى هذا التفسير لسببين؛ الأول، لكثرة تداوله في كتب التفاسير، والثاني لأن هذا التفسير له أصل تاريخي وعلمي وخاصة في قولهم: «حاز الأرض من قرنيها»، فقد كان العلماء قديما يشبهون الكتلة اليابسة من الأرض بالمثلث المقلوب. كما أن رمز الأرض الذي وضعه

أرسطو وما زال يستخدم حتى الآن في كتب الطبيعة يأخذ أيضًا شكل المثلث المقلوب. وهذا الرمز يتطابق بالفعل مع شكل اليابسة على كوكب الأرض، فلو ضممنا الكتلة اليابسة للأمريكتين على الكتلة اليوروأفروآسيوية (وقد كانوا هكذا بالفعل قبل انفصالهم منذ آلاف السنين) لوجدنا أن شكل اليابسة على الأرض يأخذ شكل مثلث مقلوب. شكل (15)

شكل (15) الكتلة اليابسة للأرض على شكل مثلث مقلوب، فيكون قرنا الأرض هما أقصى الشمال الشرقي وأقصى الشمال الغربي

وحيث إن «القرن» هو أعلى الجانب كما ورد في معجم لسان العرب، فيكون قرنا الأرض هما الزاويتان العليتان من هذا المثلث، أي أقصى الشمال الشرقي، وأقصى الشمال الغربي من الكتلة اليابسة. وهذا المعنى يتطابق مع تصورنا لرحلة ذي القرنين التي ذكرناها في القسم السابق من

حيث انتقاله من أقصى الشمال الغربي إلى أقصى الشمال الشرقي، المتقاربين من بعضهما البعض عند مضيق بيرنج.

(٢)

أقوال المفسرين في صاحب شخصية ذي القرنين

سبق وذكرنا أن القرآن الكريم لم يُسمِ ذا القرنين، وكذلك فعل الرسول ﷺ، وأن كل ما ورد في كتب السير، وأخبار التاريخ من نظريات عن شخصية ذي القرنين هو من باب الاجتهاد لهذا الغيب النسبي. ولم يرد في صحيح البخاري أو مسلم أي حديث عن ذي القرنين، وأغلب الأحاديث التي وردت في غير البخاري ومسلم، ضعفها علماء الحديث، منها ما ورد في الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي عن أبي جعفر قال النبي ﷺ: «رحم الله أخي ذا القرنين، لو ظفر بالزبرجد في مبدئه ما ترك منه شيئًا حتى يخرجه إلى الناس؛ لأنه كان راغبًا في الدنيا، ولكنه ظفر به وهو زاهد في الدنيا لا حاجة له فيها». ولم يخرجه أحد من علماء الحديث، كما أن المقولة الشهيرة: «ملك الأرض أربعة؛ مؤمنان وكافران. فالمؤمنان ذو القرنين وسليمان. والكافران نمروذ وبختنصر»، فهي ليست من كلام النبي ﷺ، وإنما من كلام مجاهد بن جبر، كما قال علماء الحديث.

وسنتطرق الآن لأشهر الشخصيات التي قيل إنها ذو القرنين.

أولًا: القول بأنه الإسكندر الأكبر:

تعد شخصية الإسكندر أشهر الشخصيات التي رُشِّحَت في كتب السير والأخبار لأن تكون شخصية ذي القرنين. وورد في سياق ذلك الكثير من

الخرافات، التي لا تتفق مع المنطق أو مع تاريخ الإسكندر المعروف حاليًا، بل روى أبو زرعة الرازي في دلائل النبوة، وكذلك بن جرير عن عقبة بن عامر: «أن اليهود حين سألت النبي ﷺ عن ذي القرنين قال: «إنه شاب من الروم، وأنه بنى الإسكندرية، وأنه علا به ملك إلى السماء، وذهب به إلى السد...» إلى آخر الحديث الذي أنكره جميع علماء الحديث.

والإسكندر أحد أعظم القادة الحربيين في التاريخ، وقد أسس إمبراطورية عظيمة امتدت من فرنسا غربًا، وحتى جزر الهند شرقًا، وشملت مقدونيا واليونان والشام ومصر وفارس، واتسمت حروبه دائمًا بالبطولة والمغامرة. وقد ولد الإسكندر في منتصف القرن الرابع قبل الميلاد، وتحديدًا في عام 356 ق.م.، بمدينة بيلا عاصمة مقدونيا القديمة، وكان أبوه فيليب الثاني حاكمًا لمقدونيا. وبعد أن اغتيل فيليب الثاني عام 336 ق.م. اعتلى الإسكندر عرش مقدونيا وعمره لا يتجاوز العشرين عامًا. ثم خاض بعدها معارك عدة سحق فيها جيوش وولاة الفرس واحدًا تلو الآخر، حتى أخضع آسيا الصغرى وسوريا ومصر وليبيا، ثم عاد إلى فارس، وعبر نهري دجلة والفرات، وقابل جيوش الفرس بقيادة داريوش الثالث، وهزمه هزيمة نكراء، وقتله خلال المعركة، ثم اتجه إلى «برسيبولس» عاصمة الفرس، فأحرقها وخربها انتقامًا لما فعله الفرس بأثينا قبل ذلك بسنوات. وبعد أن استتب له الأمر في فارس قرر أن يواصل زحفه إلى الهند حتى يخضع آخر معاقل دولة الفرس، وأيضًا لغرض آخر في نفسه، إذ كان مشتاقًا للوصول إلى أرض

الهند التي سمع عنها من معلمه أرسطو. واستطاع الإسكندر أن يخضع الكثير من الممالك في طريقه، وخاض معركة رهيبة غرب الهند ضد جيش «بوروس»، القائد الفارسي، والذي ضم عددًا مهولًا من الأفيال، وأخيرًا نجح الإسكندر، بفضل براعته في التخطيط، في أن يلحق الهزيمة بجيش بوروس. وبعد هذه المعركة تمرد الجيش الذي أنهكه التعب من كثرة الحروب، ورفض الاستمرار في الزحف على باقي الممالك في شرق الهند. وأصيب الإسكندر بالاكتئاب والضيق من تمرد الجيش عليه، واعتكف ثلاثة أيام في خيمته أملا في أن يعدل الجيش عن تمرده. ولما لم يجد بُدًا من النزول على رغبة الجنود، قرر قطع حملته والعودة إلى مقدونيا، وفي الطريق وعند مدينة بابل، نصب الإسكندر معسكره على نهر الفرات في بلدة عرفت فيما بعد بالإسكندرية، ولم يلبث أن أصيب بحمى شديدة في هذا المكان، مات على إثرها تاركًا خلفه إمبراطورية مترامية الأطراف. وكان ذلك في عام 323 ق.م. عن عمر يناهز 33 عامًا. والسؤال الآن لماذا يعتقد البعض أن الإسكندر الأكبر هو ذو القرنين؟، والحقيقة أن ذلك يرجع إلى أسباب عدة نوجزها فيما يلي:

1. **اتساع ملكه:** استحضر المفسرون مما ورد في قول الله تعالى: {إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا} صورة ذهنية عن ذي القرنين تجعله في مصاف الملوك الكبار الذين وصلت فتوحاتهم إلى مشارق الأرض ومغاربها. ورأوا أن الإسكندر الأكبر، وهو أحد هؤلاء الملوك، يمكن أن

يمثل هذه الشخصية التي وصفها القرآن الكريم بالمكانة.

2. **ارتباطه بالقرنين:** يرى البعض أن الإسكندر الأكبر قد لقب بالإسكندر ذي القرنين حينما ارتدى تاج الإله آمون-رع والذي يأخذ شكل إنسان يحمل تاجًا بريشتين، وأحيانا يأخذ شكل الكبش. ويرى آخرون أنه اشتهر بتعليق قرنين في شعره، واستدلوا على هذا من العملات التي سُكت عليها صورته إبان فترة حكمه، وقد أظهرت شكل القرنين بوضوح. شكل (16)

St-Takla.org

شكل (16) عملة معدنية تحمل صورة الإسكندر الأكبر، وقد علق في شعره قرني كبش.

3. **التسامح الديني:** هناك في حياة الإسكندر ما يدل على أنه لم يكن مجرد قائد حربي، لا يجيد سوى فنون الحرب والنزال، بل كان يحمل في جعبته

أفكارًا نبيلة استمدها من معلمه العظيم «أرسطو» والذي تتلمذ على يديه حتى سن السادسة عشرة. ومن هذه الأفكار التسامح الديني؛ فحينما وصل إلى مصر لم يجد غضاضة في أن يحج إلى المعبد العظيم في سيوة للإله آمون-رع، كما وافق على تنصيبه ابنًا للإله آمون، والشيء نفسه تكرر حينما فتح سوريا وأرض فلسطين، فلم يضر اليهود بشيء، ولم يهدم معابدهم. ودخل أورشليم وقدم الذبائح في المعبد، وأعطى اليهود امتيازات خاصة. بل إن تسامحه الديني قد امتد إلى ألد أعدائه الفرس. فبعد مقتل دارا أو داريوش الثالث واحتلال بيرسيبولوس، لقب الإسكندر نفسه باسم «سيد آسيا» على عادة الملوك الفرس، ودأب على ارتداء الملابس الفارسية والاهتمام بالمراسم والأعياد الفارسية، ووصل الأمر إلى أن تزوج هو وثمانية من قادة جيوشه من أميرات فارسيات.

4. السد: ربط البعض بين السد الذي بناه ذو القرنين وبين الحصون التي نُسِب بناؤها إلى الإسكندر الأكبر. خاصة أن المؤرخ اليهودي فلافيوس يوسيفوس (Josephus Flavius)، وكان أديبًا ومؤرخًا يهوديًا عاش في القرن الأول الميلادي، ذكر في كتابه «تاريخ اليهود» (Antiquities of Jews) أن الإسكندر الأكبر أقام بوابات من الحديد عند بحر قزوين لمنع قبائل «السكيثيين» (Scythians) البدائية من الإغارة على مستعمراته جنوب البحر الأسود، وهذه القبائل أطلق عليها فلافيوس اسم قبائل «ماجوج» نسبة إلى القبائل التي ورد ذكرها في التوراة. وقد سبق وأشرنا أن

هذه الحصون لم يبنِها الإسكندر، كما أن المنطقة المشار إليها، أوكرانيا حاليًا، قد نشأت بها الحضارة السيكثيانية فيما بعد، وكثُرت بها الصناعات، وانتشرت بها الديانة الزرادشتية لعقود على خلاف ما ذكر عن يأجوج ومأجوج.

5. سيرة الإسكندر: دليل آخر يستند إليه الكثير من المستشرقين على أن الإسكندر الأكبر هو نفسه ذو القرنين الذي ورد ذكره في القرآن ألا وهو السيرة الشعبية للإسكندر الأكبر، والتي انتقلت تواترًا في القصائد، وفي التراث الشعبي الإغريقي على مدى قرون بعد وفاة الإسكندر، وقد ظهرت أول نسخة مجمعة لهذه الأساطير في مخطوطة عرفت باسم «سيرة الإسكندر(36)» (Alexander romance) باللغة اليونانية، وكان ذلك في القرن الثالث الميلادي، أي بعد وفاة الإسكندر بأكثر من ستة قرون، ولم يُستدل على اسم مؤلفها. وتضم السيرة الكثير من الحقائق التاريخية، والكثير أيضًا من الأساطير والمبالغات الشعبية المفتتنة بالبطل المغوار. وقد تُرجمت هذه المخطوطة إلى لغات عدة بدءًا باللغة اللاتينية في القرن الرابع الميلادي ثم السريانية والعبرية والفارسية بعد ذلك. ويرى المستشرقون أن انتشار هذه المخطوطة إلى السريانية في الجزيرة العربية كان في القرن السابع الميلادي، وهو يتزامن مع -أو يسبق قليلًا- نزول سورة الكهف في القرآن.

ويعتقد الكثيرون أن من قام بهذه الترجمة هو الشاعر اللاهوتي والقس

السرياني الشهير «يعقوب السروجي» والذي توفى قبل بعثة النبي محمد ﷺ بنصف قرن تقريبًا. ويحتجون بأن هناك تشابهًا بين الأحداث التي وردت في النسخة السريانية وأحداث قصة ذي القرنين في سورة الكهف، مثل بناء بوابات الإسكندر لحجز قبائل السكثيين والتي تشبه السد، كذلك وصول الإسكندر إلى أرض الظلمات، ورؤيته لنبع المياه الحارة المعروف بنبع الشباب أو نبع الحياة (Fountain of youth). وللأسف الشديد نقل بعض المحدثين هذه الأخبار في كتبهم، منها ما رواه أبو الشيخ الأصفهاني جعفر بن حيان، في كتاب «العظمة» من حديث أبي جعفر الباقر عن ذي القرنين، والتي ورد فيها ذكر أرض الظلمات ونبع الحياة، بل وذكَرَ فيها لقاء حدث بين الخضر وذي القرنين(37).

وقد أنكر المفسرون والعلماء هذا الحديث جملة وتفصيلًا، وسنذكر ذلك لاحقًا.

وقد شكك العلماء في مصداقية وقيمة هذه المخطوطات التوثيقية. فإلى جانب احتوائها على الكثير من المبالغات والأساطير الشعبية، نجد أنها قد تعرضت أيضًا للتحريف والتغيير على مدار سنوات تحت ضغط ظروف سياسية أو دينية معينة. ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما حدث في المقالة الخامسة من تلك النسخة السريانية، والتي أضيف إليها الكثير من الفقرات في عام 692 ميلاديًا بعد ظهور نبوءات «الأنبياء المزيفون أعداء الكنيسة» (Apocalypse of Pseudo -Methodius) في العقيدة المسيحية. وقد

كُتبت هذه الفقرات خصيصًا كرد فعل لغزو المسلمين للشام وسقوط بيت المقدس في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، فذكرت صراحة أن المسلمين هم قبائل ماجوج الذين يهددون الكنيسة والعالم المسيحي. ونجد تحريفًا فجًا آخر في المقالة الخامسة، أُضِيف تحت وطأة ظروف سياسية وهي الفقرة التي تذكر انتصار الإمبراطور البيزنطي «هرقل» على الفرس، وهو الإمبراطور الذي عاصر سيدنا محمد ﷺ، وقد ذُكرت كنوع من المديح والنفاق للإمبراطور الذي يحكم الشام وقتها، رغم أنه لم يُشر إلى هزيمة الإمبراطور نفسه على أيدي جيوش العرب بعد ذلك بسنوات قليلة.

وقد تلقف الكثير من المؤرخين العرب النسخة السريانية لسيرة الإسكندر، وترجموها وربطوا بينها وبين أحداث قصة ذي القرنين. ويعتقد الكثيرون أن التابعي «وهب بن منبه»، وهو من أكثر التابعين الذين كتبوا في التاريخ، وفي ذكر الملوك، واشتهر بغزارة علمه في الإسرائيليات، قد تأثر كثيرًا بما ورد في «سيرة الإسكندر» عند كتابته عن ذي القرنين. وأورد حديثًا طويلًا نقله عنه القرطبي، وذكرته سائر كتب التفاسير، بدأه بقوله: كان ذو القرنين رجلًا من الروم، ابن عجوز من عجائزهم ليس لها ولد غيره، وكان اسمه الإسكندر، فلما بلغ وكان عبدًا صالحًا قال الله تعالى: يا ذا القرنين! إني باعثك إلى أمم الأرض وهم أمم مختلفة ألسنتهم... إلى آخر الحديث».

وقد أنكر الكثير من المفسرين والعلماء هذا الحديث جملة وتفصيلًا كما سبق وذكرنا.

(٢) أقوال المفسرين في صاحب شخصية ذي القرنين - صفحة 145/ 235

6. **الدليل من التوراة:** يستند البعض إلى أن الإسكندر الأكبر قد ورد ذكره رمزًا في العهد القديم لإثبات أنه ذو القرنين. وقد احترمت التقاليد اليهودية شخصية الإسكندر الأكبر، واختارت أن تصفه «بالملك المؤمن». ويفسر الكثيرون نبوءة «الكبش والتيس» التي وردت في سفر دانيال على أنها كانت نبوءة عن هزيمة الفرس (الكبش) على يد الشاب المقدوني الذي رُمِز له بالتيس. تقول النبوءة: «فرفعت عيني ورأيت وإذا بكبش واقف عند النهر وله قرنان، والقرنان عاليان، والواحد أعلى من الآخر، والأعلى طالع أخيرا. رأيت الكبش ينطح غربًا وشمالا وجنوبًا، فلم يقف حيوان قدامه ولا منقذ من يده، وفعل كمرضاته وعظم. وبينما كنت متأملا إذا بتيس من المعز جاء من المغرب على وجه كل الأرض، ولم يمس الأرض، وللتيس قرن معتبر بين عينيه. وجاء إلى الكبش صاحب القرنين الذي رأيته واقفا عند النهر، وركض إليه بشدة قوته. ورأيته قد وصل إلى جانب الكبش، فاستشاط عليه وضرب الكبش وكسر قرنيه، فلم تكن للكبش قوة على الوقوف أمامه، وطرحه على الأرض وداسه، ولم يكن للكبش منقذ من يده».

ونحن نرى أنه، حتى لو سلمنا أن ما في النبوءة إشارة إلى حرب الإسكندر ضد الفرس، فإن سياق النبوءة لا علاقة له من قريب أو بعيد بقصة ذي القرنين التي وردت في القرآن، اللهم إلا إذا كان وجود قرن معتبر للتيس دليل على أن الإسكندر هو صاحب الشخصية!

7. **الإيمان بالخالق:** أخيرًا، يروي المؤرخون حادثة لا يوجد دليل قاطع

(٢) أقوال المفسرين في صاحب شخصية ذي القرنين - صفحة 146/ 235

عليها، حدثت عند وفاة الإسكندر وهي أن الإسكندر الأكبر حينما وافته المنية قال في لحظاته الأخيرة، وقد رفع يديه إلى السماء «إلى الأقوى». ورغم أن هذه العبارة لا تعني بالضرورة أن الإسكندر يقصد الخالق عز وجل، فمن الوارد أن يكون قصده زيوس كبير الآلهة، إلا أن بعض الباحثين قد استند إليها لإثبات صفة الإيمان عند الإسكندر الأكبر.

الرد على أن الإسكندر الأكبر هو شخصية ذي القرنين:

رغم كل ما ذكرناه آنفا من أسانيد يدفع بها أصحاب الرأي بأن الإسكندر المقدوني هو صاحب شخصية ذي القرنين، نجد في الجهة المقابلة حججًا قوية وأسانيد أخرى تنكر أن يكون الإسكندر هو الشخصية التي ورد ذكرها في القرآن. منها ما يلي:

1 - وثنية الإسكندر الأكبر:

رغم كل ما قيل عن سماحة الإسكندر الأكبر الدينية ومحاولات البعض إضفاء الصفة الإيمانية على سيرته، إلا أنه من الثابت تاريخيًا أن الإسكندر الأكبر كان إغريقيًا وثنيًا يؤمن بآلهة الأوليمب ويقدسهم. وليس هذا فحسب، بل إن الإسكندر الأكبر قد رأى في بطولاته وفتوحاته ما يؤهله لأن يكون إلهًا إغريقيًا معبودًا على غرار أسلافه من أبطال الإغريق مثل هرقل العظيم وأخيليس بطل طروادة. وقد آمن الإسكندر بألوهيته في أثناء حياته، بل إنه قد مارس ضغوطًا كبيرة، ودفع مجلس الشيوخ، الذي كان يتولى منح درجة

(٢) أقوال المفسرين في صاحب شخصية ذي القرنين - صفحة 147/ 235

الألوهية للملوك، دفعًا لكي يوافقوا على منحه لقب إله، وليس شبيه إله أو ابن إله كما هو الحال بالنسبة لإخيليس وهرقل العظيم. وتقول الباحثة «ليندا إيريس» في بحثها عن ألوهية الإسكندر: «هناك ما يكفي من الأدلة لكي نثبت أن الإسكندر الأكبر قد آمن بألوهيته في أثناء حياته. وأولها هو الظرف التاريخي والحضاري الذي قد يدفع المرء لأن يؤمن بمثل هذا الاعتقاد. فقد كان طبيعيًا عند قدماء الإغريق أن يمنحوا ملوكهم شرف الألوهية وهم على قيد الحياة. وقد حدث هذا مع فيليب الثاني والد الإسكندر ومع دينوزس معبود الإسكندر المفضل. ولكننا نجد أن الإسكندر الأكبر لم يكن يرى في نفسه «الإله البطل» ولكنه يرى في نفسه إلها حقيقيًا، وأن مصدر ألوهيته هو أبوه الحقيقي الإله زيوس(38)».

هذا الاعتقاد الديني للإسكندر الأكبر يتنافى تمامًا مع الصفات الدينية التي ذكرها القرآن الكريم عن شخصية ذي القرنين. فأقل ما يوصف به ذو القرنين إيمانيًا أنه كان رجلًا صالحًا يؤمن بوحدانية الله تعالى، بدليل قول الله تعالى: {إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا}، وقوله تعالى: {قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا}. وأيضًا قوله: {مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ}، إلى آخر الآيات التي تثبت إيمانه بالوحدانية. بل إن بعض الفقهاء قد وضعوا ذا القرنين في مصاف الأنبياء، واستدلوا على ذلك بمخاطبة الله -عز وجل- له في قوله جل وعلا: {قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ}. ونحن نرى أن هذا ليس دليلًا على نبوة ذي القرنين، ففي القرآن

الكريم ما يدل على أن الوحي أو الخطاب الإلهي قد يوجه إلى غير الأنبياء مثل مخاطبة أم موسى، وكذلك مريم بنت عمران وأصحاب الكهف وغيرهم.

2 - الاختلاف بين اتجاه الرحلات واتجاه الفتوحات:

تختلف الاتجاهات الجغرافية لرحلة ذي القرنين التي وردت في القرآن الكريم عن اتجاهات فتوحات الإسكندر الأكبر. فكما ورد في القرآن كان لذي القرنين رحلتان رئيسيتان؛ إحداهما إلى الغرب، والتي ورد فيها: {حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا}. والثانية كانت إلى الشمال أو مطلع الشمس، والتي قيل عنها: {حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا}. وقد يكون لذي القرنين رحلات أخرى لم ينص عليها القرآن الكريم، ولكنها تفهم من قول الله تعالى: {إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا}.

وما يهمنا في هذا الصدد أن فتوحات الإسكندر الأكبر، على اتساعها، كانت في اتجاه مغاير تمامًا لرحلتي ذي القرنين اللتين وردتا في القرآن الكريم. فجميع فتوحات الإسكندر الأكبر كانت متجهة إلى الشرق -في الأساس- وإلى الجنوب. شكل (17)

(٢) أقوال المفسرين في صاحب شخصية ذي القرنين - صفحة 149 / 235

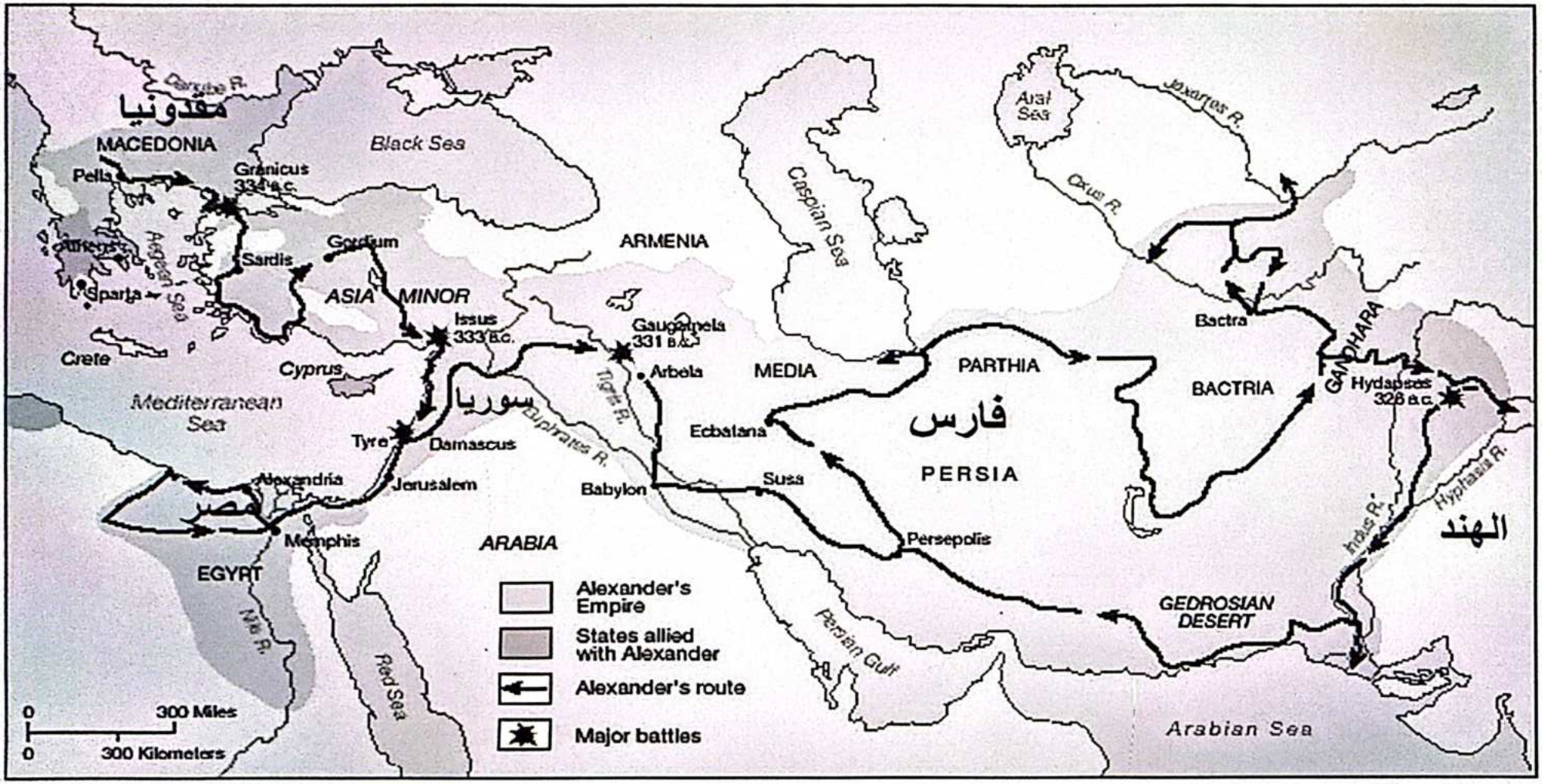

The Empire of Alexander the Great. Alexander's conquests united Eurasia from Greece to India into a cultural and, briefly, a political unity.

شكل (17) إمبراطورية الإسكندر الأكبر

وكما يتضح من خريطة الفتوحات، لم يتجاوز الإسكندر في فتوحاته حدود مقدونيا الغربية أو الشمالية، وإنما اتجه شرقًا إلى آسيا الصغرى ثم إلى سوريا، ثم جنوبا إلى مصر، ثم عاد أدراجه شرقًا إلى فارس، حتى وصل إلى مشارف الهند. وبناء على ما استنتجناه في الفصلين الأول والثاني من أن ذا القرنين قد وصل غربًا وشمالًا، فإنه لا يمكن أن يكون الإسكندر الأكبر هو صاحب تلك الرحلات.

3. النواقص والمثالب في شخصية الإسكندر الأكبر:

نأتي إلى أمر آخر هام، ولا يمكن إغفاله عند الحديث عن شخصية الإسكندر التي يقترحها البعض لأن تكون هي شخصية ذي القرنين، ألا وهو النواقص والمثالب في شخصية الإسكندر الأكبر. وقد سبق وذكرنا أن «الإسكندر الأكبر» قد تتلمذ في صباه على يد «أرسطو» العظيم، وتأثر بنهجه في التفكير، وظل يراسله حتى في أوج معاركه وفتوحاته، ويرسل إليه عينات من النباتات والحيوانات من البلدان التي يفتحها. ولكن يبدو أن تأثير أرسطو على الإسكندر الأكبر كان منحصرًا على الاتزان في التفكير الحربي والإداري، ولكنه لم يكن كافيًا لأن يمنح الإسكندر الاتزان العاطفي الذي ظل مصدر معاناة للإسكندر طوال حياته. ويرى بعض المؤرخين أن هذا الاضطراب العاطفي هو كلمة السر لحل لغزين غامضين ظلا مثار بحث وجدل بين المؤرخين على مدار قرون. الأول هو اتهام الإسكندر بالتورط في

(٢) أقوال المفسرين في صاحب شخصية ذي القرنين - صفحة 151/ 235

قتل أبيه فيليب الثاني، والثاني هو اتهام الإسكندر بالشذوذ والانحراف الجنسي مع صديقه الأقرب إلى قلبه ورفيق صباه «هيفاستيون». وهناك حقائق تاريخية ثابتة في كثير من المراجع تثبت أن العلاقة بين الإسكندر وأبيه قد شهدت اضطرابًا عنيفًا مصدره الخلافات الدائمة بين فيليب ووالدة الإسكندر «أوليمبيا». وتفاقمت تلك الخلافات بعد زواج فيليب من زوجته الخامسة الأميرة كليوباترا ابنة القائد العام «أتالوس». ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل انتقل التوتر في العلاقة بين الزوجين إلى العلاقة بين الأب والابن حينما تردد أن فيليب يريد أن يعهد بولاية العرش إلى شقيق الإسكندر الأكبر المصاب بالصرع. وانتهى الأمر باغتيال فيليب على يد أحد حراسه الشخصيين في أثناء مراسم زواج ابنته. وبعد أن اعتلى الإسكندر العرش تفرغ للانتقام من أعدائه وأعداء والدته. فقتل «أتالوس» حمو فيليب، والمحرض الأول ضد ولايته للعرش، وأخضع باقي قادة الجيش لسطوته. أما بالنسبة لاتهام الإسكندر بالشذوذ الجنسي وارتباطه عاطفيًا بصديق عمره «هيفاستيون» فهو اتهام متأخر زمنيًا حيث أثاره بعض المؤرخين في عصور متأخرة عن الإسكندر، وأيده بعض الباحثين المعاصرين. ويزعم المؤيدون لهذا الرأي أن الإسكندر حينما زار قبر البطل الحربي الشهير «أخيليس»، والذي كان معروفًا عنه الشذوذ وعلاقته بالقائد «باتروكلوس»، جثا على ركبتيه أمام القبر، وقال: «إن هيفاستيون بالنسبة للإسكندر مثل باتروكلوس بالنسبة لأخيليس».

(٢) أقوال المفسرين في صاحب شخصية ذي القرنين - صفحة 152/ 235

4. جنون العظمة وادعاء الألوهية:

أما آخر المثالب التي ذكرت في شخصية الإسكندر فهي إصابته في أواخر أيامه بجنون العظمة. فقد تضافرت إنجازاته غير المسبوقة مع مداهنة رفقائه في تولد إحساس فائق الوصف بعظمة الذات داخله. وأدت وفاة صديق عمره «هيفاستيون» المفاجئة إلى شعوره بأن الموت هو عدوه الأول، فسعى إلى الخلود بأن ادعى لنفسه الألوهية. وتحولت كلمات أمه له بأنه ابن «زيوس العظيم» وكذلك تعميد الكهنة له ابنًا للإله آمون بمصر إلى إيمان عميق بأحقيته في أن يكون «إلهًا»، فخاض حربًا ضد مجلس الشيوخ، حتى أقروا بألوهيته كما سبق وذكرنا. وقد ذكر الفيلسوف بلوتارخ في كتابه عن حياة الإسكندر، أن شابًا من مجلس الشيوخ اسمه «بيثياس»، وكان أحد الخطباء بالمجلس، اعترض على تأليه الإسكندر الأكبر، وحين جادله الشاعر الكبير ديموسينيس وقال له: «إنك أصغر من أن تدلي برأيك»، أجاب الشاب: «أنا أكبر من الإسكندر الذين تريدون تأليهه(39)»، ويتشابه اسم هذا الرجل مع رجل آخر سنتحدث عنه في الفصول المقبلة، وله علاقة وطيدة بقصتنا.

وبناء على ما سبق، فإننا لا نعتقد -كما يعتقد الكثيرون- أن الإسكندر الأكبر هو صاحب شخصية ذي القرنين التي وردت في القرآن. وسنعرض الآن الشخصية التالية التي رشحها بعض الباحثين لأن تكون هي شخصية ذي القرنين.

ثانيًا: القول بأنه كورش العظيم (Cyrus the Great):

وكورش هو أعظم ملوك الفرس على الإطلاق، ولد عام 600 ق.م.، وتوفي عام 530 ق.م.، أي أنه سبق الإسكندر الأكبر بحوالي ثلاثة قرون. وهو مؤسس إمبراطورية الفرس الأخمينية التي بدأت بالسيطرة على ممالك الشرق الأدنى القديم، وسقطت تلك الممالك في يده واحدة تلو الأخرى قبل أن يسيطر على بابل مركز حضارة العالم القديم. وامتدت فترة حكم كورش إلى واحد وعشرين عامًا، اتسع خلالها ملكه ليمتد من نهر السند (على مشارف الهند) وحتى مدينة «سردس» التركية. وهي إمبراطورية تفوق من حيث اتساعها، وزمن بقائها إمبراطورية الإسكندر الأكبر، وازداد توسعها في عهد أبنائه وخلفائه وبالأخص ابنه «قمبيز الثاني» الذي ضم مصر والنوبة وليبيا إلى مملكة الفرس. شكل (18)

والسؤال لماذا يعتقد البعض أن كورش هو صاحب شخصية ذي القرنين؟ والحقيقة أن هذا يرجع إلى أسباب عدة نوردها فيما يلي:

1 - ارتباط كورش باليهود:

سبق وذكرنا أن الذين سألوا الرسول ﷺ عن ذي القرنين هم اليهود من خلال كفار قريش. وعلى هذا فإنه من المنطقي أن يكون هناك ارتباط ما بين كورش وشخصية ذي القرنين وبين اليهود.

شكل (18) التمثال المجنح للملك كورش العظيم

(٢) أقوال المفسرين في صاحب شخصية ذي القرنين - صفحة 155/ 235

وقد أمسك العلامة الهندي المسلم «أبو الكلام آزاد» بهذا الخيط في بحثه عن شخصية ذي القرنين، واستند إلى هذه الفرضية في استنتاجه بأن كورش هو صاحب شخصية ذي القرنين، وأيَّده في ذلك الكثير من الكتّاب الناقلين عنه.

وحقيقة الأمر أن الملك كورش الكبير يعد أعظم الملوك الأمميين (أي غير اليهود) منزلة عند اليهود. فهو الملك الذي أعادهم إلى أورشليم بعد السبي البابلي، وسمح لهم ببناء الهيكل مجددًا، بعد أن هدمه الملك البابلي نبوخذ نصر. وقد ورد اسم كورش صراحة في التوراة في سفر إشعيا في الإصحاح 44 والإصحاح 45. وإشعيا هو أحد أنبياء اليهود الذين عاصروا سقوط مملكة يهوذا الشمالية على يد الآشوريين في عام 701 ق.م. ومات قبل ميلاد كورش بأكثر من مائة عام. واشتهر سفر إشعيا بنبوءاته عن حدوث السبي وسقوط مملكة يهوذا ونبوءات أخرى عن آخر الزمان. وقد استشهد رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو، بهذا السفر حين قال في خطابه بعد أحداث السابع من أكتوبر في غزة 2024: «نحن نور وهم ظلام، وستُحقق فيهم نبوءة إشعيا»، وذكر المحللون أن نبوءات إشعيا كلها كانت تدعو بالخراب على كل البلاد الموجودة على تخوم إسرائيل ومنها مصر، وموآب، وقيدار وفارس وغيرها. ومن بين نبوءات هذا السفر، نجد نبوءة «كورش» والتي تعد من أكثر النبوءات عجبًا وغرابة. فقد ذكرت النبوءة على لسان إشعيا: «هكذا يقول الرب لمسيحه كورش الذي أمسكت بيمينه لأدوس

أمامه أمما وأحقاء ملوك أحل لأفتح أمامه المصراعين والأبواب لا تغلق...» إلى قوله: «لكي تعرف أني أنا الرب الذي يدعوك باسمك. لقبتك وأنت لست تعرفني». وفي الإصحاح الرابع والأربعين على لسان الرب: «القائل عن كورش: راعي، فكل مسرتي يتمم. ويقول عن أورشليم: ستبنى، وللهيكل: ستؤسس» (إشعيا: 44-45).

ومصدر العجب في هذه النبوءة يرجع إلى شيئين؛ أولًا: أنها كُتبت بتفصيل عجيب ووضوح في الألفاظ يخالف ما ورد في باقي نبوءات سفر إشعيا أو أي من أسفار العهد القديم. فقد ذكرت اسم الملك صراحة، وذكرت الانتصارات التي سيحققها وذكرت أنه سيبني أورشليم وسيعيد بناء الهيكل. كل هذا يبدو عجيبًا إذا قارنّاه مثلًا بنبوءة دانيال -التي أوردناها سابقًا- عن الكبش والتيس والتي رمزت لكورش بالكبش وللإسكندر بالتيس، واستخدمت أسلوبًا رمزيًا غامضًا للإشارة إلى انتصارات كل منهما، مع العلم بأن دانيال جاء بعد إشعيا أي أنه كان أقرب لزمن الأحداث. ثانيًا وهو الأهم، أن النبوءة قد اعتبرت كورش مسيحًا (anointed) أي مُسِح بالدهن المقدس. وقد كان اليهود يمسحون أنبياءهم وكهنتهم بالدهن المقدس، حتى تحل عليهم الروح القدس، ويكونوا على اتصال بالرب. ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يُمسح شخص أممي (أي غير يهودي)، لأن الأمميين -حتى وإن كانوا موحدين- يُعدون كفرة في شريعة اليهود، ولا يوجد دليل على أن كورش اعتنق الديانة اليهودية، أو

(٢) أقوال المفسرين فى صاحب شخصية ذي القرنين - صفحة 157/ 235

مُسِح بالدهن. وهذان الأمران يدفعاننا إلى التشكك في أنه من المحتمل أن تكون هاتان النبوءتان قد أضيفتا إلى سفر إشعيا لاحقًا في أثناء فترة السبي بعد أن قضى كورش على أبناء نبوخذنصر. ثم وظف اليهود هذه النبوءات سياسيًا للتقرب إلى البلاط الملكي، وهذا ما حدث فعلًا، حتى يستخلصوا من كورش وعدًا يسمح لهم بالعودة إلى أرض الميعاد وبناء الهيكل مرة أخرى. وهذا يتسق مع طبائع اليهود في العصور كلها، فليس غريبًا على من استخلصوا وعد «كورش» في القرن السادس قبل الميلاد، أن يستخلص أحفادهم وعد «بلفور» في القرن العشرين بعد الميلاد.

ونحن لا نلقي بهذا الاتهام جزافًا، بل استنادًا إلى جدل لاهوتي كبير حول مدى قانونية سفر إشعيا، وهل إشعيا نفسه هو كاتب هذه الإصحاحات أم لا. يقول عالم اللاهوت حبيب سعيد في كتابه المدخل إلى الكتاب المقدس(40):

«وحين نجيء إلى إشعيا في الإصحاحات من 40 - 56، نقف مشدوهين متسائلين، كيف اتحدت هذه الإصحاحات مع ما سبقها، وكونت كتابًا واحدًا، نُسب إلى الكاتب عينه!» ثم يضيف: «فإشعيا وضع كتابه في زمن كانت فيها مملكة يهوذا حية ترزق، وكان شعبها يعيش في ربوع فلسطين، ثم نجيء إلى الإصحاح 40، فنرانا أمام حديث يؤخذ منه أن الشعب لا وجود له في فلسطين، وأنه مسبي في بابل!».

ومرة أخرى نؤكد أن استخدام النبوءات والأساطير المقدسة كانت هي

(٢) أقوال المفسرين في صاحب شخصية ذي القرنين - صفحة 158/ 235

الأداة الأكثر استعمالًا في يد حاخامات اليهود للحفاظ على الهوية اليهودية، وإبقاء الأمل متجددًا حتى في أحلك الظروف، ولا ضير من استخدامها سياسيًا من أجل تحقيق مصالح على حساب باقي الشعوب.

ونعود إلى السبب الثاني الذي جعل كورش أحد الأسماء المرشحة لكي يكون ذا القرنين.

2. سماحة كورش:

لا يوجد دليل ثابت على ديانة كورش الكبير، ولكن هناك اتفاقًا عامًا بين جميع المصادر التاريخية على أنه كان رجلًا صالحًا وشديد التسامح دينيًا. وأكثر الفرضيات شيوعًا عن ديانة كورش بين الباحثين المسلمين هي القول بأنه كان يعتقد الزرادشتية.

وقد حاولت أن أجد نصوصًا لصلوات «كورش» في أي من المصادر التاريخية التي تتحدث عنه. فلم أجد سوى نص واحد وجد مكتوبًا على أيقونة أثرية مصنوعة من الفخار، وتعرف باسم «أسطوانة كورش» (Cyrus cylinder) وهذه الأسطوانة موجودة في المتحف البريطاني بلندن. وهذا هو النص:

«We pray daily before Bêl and Nabû for long life for me, and may they speak a gracious word for me and say to Marduk, my lord, «May Cyrus, the king who worships you,

and Cambyses, his son»

وترجمة النص تعني:

«نصلي يوميا أمام «بعل» و«نابو» من أجل حياة مديدة من أجلي. فلعلهما يتكلمان بكلمة كريمة عني أمام إلهي «مردوخ» ويقولان لعل كورش الملك وابنه قمبيز يصليان من أجلك». ومردوخ هو كبير آلهة البابليين منذ عهد حمورابي. حيث وحد حامورابي آلهة بابل جميعها تحت إمرة الإله «مردوخ» وأطلق حامورابي على نفسه «خليل الآلهة». وهذا يجعلنا نتشكك في أن ديانة «كورش» كانت ديانة توحيدية، وأظن أن «كورش» كان متأثرًا بشخصية حامورابي الذي سبقه بأكثر من ألف عام، وترك شريعة اعتنقها أهل بابل لآلاف السنين عرفت باسم قانون حامورابي».

3. تمثال كورش الكبير:

وقد لفت العلامة الهندي «أبو الكلام آزاد» النظر إلى تمثال كورش الكبير، الذي وُجد عند مقبرته بمدينة بباساركاد الإيرانية. وهو تمثال بالحجم الطبيعي، وقد ظهر فيه كورش وله أربعة أجنحة، ووضع فوق رأسه تاجًا له قرنان، وكتب أسفل التمثال بثلاث لغات «أنا الملك كورش الإخميمي».

الرد على أن كورش هو صاحب شخصية ذي القرنين:

رغم اجتهاد العلامة «أبو الكلام آزاد» المحمود لإثبات أن كورش هو ذو

عظيمَ وصالح، وأيضًا على علاقة كورش باليهود كما ورد في التوراة، دون أن يربط بين أحداث القصة القرآنية وبين تاريخ وفتوحات كورش. وكأنه حينما قدم فرضيته كان ينظر إلى ما ذكر من انتقادات لفرضية الإسكندر الأكبر، وحاول أن يثبت عكسها في كورش الكبير. ونحن نرى أن الانتقادات التي سبق ذكرها في فرضية الإسكندر الأكبر ما زالت قائمة عند استبدال كورش بالإسكندر.

- **أولًا:** لا نجد في تاريخ كورش قصصًا عن رحلات إلى مغرب الشمس، فأقصى ما وصلت إليه فتوحاته غربًا كان إلى حدود تركيا، كما أننا لا نجد له أية رحلات في نطاق المنطقة القطبية الشمالية. أضف إلى ذلك أن رحلات ذي القرنين كانت مليئة بأحداث وظواهر، وكل هذا لم يرد عن كورش.

- **ثانيًا:** ما زال الشك قائما فيما يتعلق بإيمان كورش بالوحدانية والدليل على ذلك ما أوردناه من نص يوضح صلاته إلى الإله مردوخ وبعل ونابو؛ مما يرجح أنه كان وثنيًا، رغم صلاحه على غرار الأب الروحي للحضارة البابلية حامورابي الملقب «بخليل الآلهة».

- **ثالثًا:** لا يعتبر ارتداء تاج ذي القرنين شيئًا مميزًا لكورش، فقد ارتداه الكثير من الملوك في عصره. كما أن لقب كورش بملك أركان الأرض الأربعة فيه مبالغة معتادة من الملوك، فالملك المصري مينا كان لقبه «ملك الأرضين»، وكذا ملك «الشمال والجنوب». وملوك الفرس كانوا

يلقبون إلى وقت قريب بالـ «شاهنشاه» أي ملك الملوك. وهذه الألقاب لا تحمل دليلًا، أو إشارة إلى شخص غير تقليدي.

ثالثًا: أقوال أخرى عن شخصية ذي القرنين:

وردت أقوال ونظريات أخرى كثيرة عن صاحب شخصية ذي القرنين. وتتسم هذه النظريات بأنها ضعيفة الأدلة والأسانيد، بل إن منها ما يحتوي على أخطاء تاريخية فادحة. وسنكتفي بتسمية بعضها دون ذكر التفاصيل، حتى يكتمل عرضنا للأقوال التي وردت عن ذي القرنين. فقد قيل إنه «هرمس الثاني» المصري، والذي يعرف في اليونانية باسم «هرمس تريسمجيستس» (Hermes Trismegistus). والذي قيل إنه إله الحكمة والكتابة عند القدماء المصريين، وأيضًا إله الحكمة عند اليونانيين القدماء. والشخص نفسه يطلق عليه العرب اسم أخنوخ، ويظن البعض أنه نبي الله إدريس، أحد أقدم الأنبياء، والذي بُعث إلى أهل مصر. ونبي الله إدريس هو أول من خط بالقلم، أو خط بالرمل كما رُوي عن رسول الله ﷺ. وقيل إنه أفريدون البطل (Fereydun)، وهو شخصية أسطورية في الأدبيات الإيرانية والهندية القديمة. وأشارت بعض روايات الشيعة أنه عاصر إبراهيم الخليل عليه السلام. ويُحكى في ملحمة الملوك الفارسية «الشاه نامة» أن أفريدون قتل الملك الشرير المعروف باسم «الضحاك» (Zahhāk) وحكم البلاد لمدة 500 عام ثم قسمها على أبنائه الثلاثة قبل أن يموت.

وقيل إنه «سليمان»؛ لأنه حكم الجن والإنس، وقيل إنه «الصعب بن ذي

يزن الحميري»، وقيل «إخناتون»!

وأخيرًا، فإن الآراء كلها التي وردت عن شخصية ذي القرنين، قد بحثت عنه في دائرة الملوك العظماء والفاتحين، دون أن يلتفتوا إلى أنه قد يكون شخصًا من خارج هذه الدائرة. وقد كانت هذه الفرضية هي مدخلنا عند البحث عن شخصية ذي القرنين. وهذا ما سنعرفه في الفصل التالي من لقاء مع ذي القرنين.

(٢) أقوال المفسرين في صاحب شخصية ذي القرنين - صفحة 163) 725

(٣)

البحث عن ذي القرنين

أوضحنا في الفصل السابق كيف أن الباحثين الذين سبقونا قد انصب بحثهم عن شخصية ذي القرنين في دائرة الملوك العظماء، الذين اتسعت ممالكهم وفتوحاتهم، دون أن يضعوا احتمالًا أن هذه الشخصية قد تكون من خارج هذه الدائرة. وحينما شرعنا في البحث عن شخصية ذي القرنين، وضعنا هذه الفرضية نصب أعيننا، ورجعنا إلى آيات القرآن الكريم لنستخلص منها المفاتيح التي نستطيع بها أن نرسم صورة لشخصية ذي القرنين. وكان السؤال الذي يقوم عليه البحث هو:

هل كان ذو القرنين ملكًا من الملوك، أم أنه كان رحالة ومستكشفًا وعالمًا من العلماء؟

وقد خلصنا إلى أن آيات القرآن ترجح أن يكون ذو القرنين عالمًا رحّالة ومستكشفًا، أكثر من كونه ملكًا من الملوك، والدليل على ذلك ما يلي:

أولًا: يقول تعالى عن ذي القرنين: «إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا»:

وقد استند الكثير من الباحثين إلى هذه الآية في افتراضهم أن ذا القرنين كان ملكًا عظيمًا. ونحن نرى أن تعبير {إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ} لا يعد دليلًا

على كونه ملكًا، بقدر ما يعنيه من أن الشخص المقصود كان ذا مكانة، سواء كانت هذه المكانة مُلكًا أو شرفًا أو مكانة أدبية أو علمية. والدليل على ذلك أن الله جل وعلا قد قال في القرآن الكريم عن يوسف الصديق: {وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ}. وكان يوسف وقتها لا يزال غلامًا صغيرًا مملوكًا لعزيز مصر. ولكن الآية وضَّحت في شطرها الثاني سر المكانة التي تمتع بها يوسف عليه السلام، وهي {وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ}، فقد كانت هذه هي الهبة التي منحه الله إياها، وكانت سببًا في خروجه من السجن بعد ذلك، وسببًا في مكانته اللاحقة في مصر.

ونعود إلى مكانة ذي القرنين، فقد فسر لنا الشطر الثاني من الآية سر مكانته فقال سبحانه وتعالى: {إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا}، وقد قال ابن عباس -رضي الله عنه- في معنى كلمة «سببًا»: أي آتيناه علمًا، وقال قتادة: أي علمناه منازل الأرض وأسبابها أي مسالكها. مما يدل على أننا أمام عالِم بارع في المسالك والدروب على غرار الرحّالة والمستكشفين.

ومما يعضد من هذا الفرض تكرار قول الله تعالى:{ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا} والتي تعني: «سلك طريقًا»، ثلاث مرات في سياق القصة، علمًا بأن هذه الآية لم تتكرر في أي موضع آخر من مواضع القرآن الكريم، مما يدل على أننا أمام شخصية، اختصها الله بتلك النعمة، وجعله مميزًا فيها عن غيره. وقد

جاءت المرة الأولى من {فَأَتْبَعَ سَبَبًا} في بداية الرحلة نحو مغرب الشمس، ثم بعد أن اتجه نحو مطلع الشمس، ثم حين اتجه نحو منطقة بين السدين، وهذا يدل على أن هذا الرجل قد سلك طرقًا لم يسلكها أحد من قبله في رحلاته الثلاث، وإلا فما أهمية التأكيد على المعنى نفسه ثلاث مرات.

ثانيًا: يقول تعالى عن رحلة ذي القرنين إلى الغرب: {حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا}.

وقد استنبط بعض المفسرين من هذه الآية الكريمة أن ذا القرنين كان ملكًا قويًا حتى يتمكن من إخضاع هؤلاء القوم. وحقيقة الأمر أننا لا نجد في هذا دليلًا على كونه ملكًا، فكلمة «القوم» لغةً، كما ورد في لسان العرب لابن منظور، هم الجماعة من الناس، وقيل الجماعة من الرجال دون النساء، والرهط يختلف عن القوم، فالرهط ما كان دون العشرة، أما القوم ما زاد عن عشرة. وكتب التفسير لم تحدد من هؤلاء القوم ولا سبب الخلاف بينهم وبين ذي القرنين، ولا عددهم، وقد يكون ذو القرنين قد قابل هؤلاء القوم على الساحل الذي تغرب عنده الشمس، فوقع بينهم وبينه خلاف، وربما حاولوا الغدر به فمكنه الله منهم. ولا ندري لماذا خيّر الله -سبحانه وتعالى- ذي القرنين بين أن يعذبهم وأن يتركهم. ولكن هذا التخيير في حد ذاته يدل على أن سبب الخلاف أمر دنيوي، ولهذا قال ذو القرنين لأصحابه: {قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ٨٧ وَأَمَّا

مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا}. وكما سبق وذكرنا أن وجود «نون» التعظيم، واستخدام ضمير الغائب في «ربه» تدل على أن ذا القرنين كان يخاطب أصحابه في هذه الآية، وليس الله عز وجل.

وما يهمنا في هذا الصدد، أن هذه الآية لا يمكن أن تُتخذ دليلًا مطلقًا على أن ذا القرنين كان ملكًا عظيمًا يمتلك جيشًا ضخمًا. فلكي يقوم مستكشف بمثل هذه الرحلة العظيمة، فلا بد أن تكون معه حملة، وبها طاقم من الحراس، أو البحارة، يتمنطقون بالأسلحة تحرزًا من قطاع الطرق، أو القراصنة. ومثل هذا الطاقم قادر على إخضاع أي فرقة من قطاع طرق، أو بعض القبائل المغيرة عليهم. وليس أدل على ذلك مما حدث في رحلة كريستوفر كولومبوس الثانية لاكتشاف الأمريكتين. فقد أعدَّ طاقمًا مكونًا من 1200 شخص، منهم الجنود والبحارة والحراس وغيرهم. ورغم قلة هذا العدد، استطاع كولومبس أن يُخضع القبائل البدائية للسكان المحليين، وعاد بغنائم طائلة إلى موطنه الأصلي. وقد ارتكب في سبيل الحصول على الذهب وعلى خيرات هذه البلاد فظائع مهولة. فنقرأ في الموسوعة البريطانية، ما ترجمته: «إن كولومبس كان يفرض على كل من يتجاوز عمره 14 عامًا من قبائل التاينو أن يدفع خرجًا مملوءًا بالذهب كل ثلاثة أشهر. ومن لا يستطيع، فعليه أن يقدم خمسة وعشرين رطلًا من القطن المنسوج، ومن لا ينصاع للأمر، تُقطع يديه ويترك لينزف حتى الموت». وعلى هذا فإن

إخضاع القوم الذين ذُكروا في هذه الرحلة ليس دليل إثبات على أن ذا القرنين كان ملكًا عظيمًا على رأس جيش نظامي كبير العدد.

ثالثًا: السياق العام للقصة القرآنية هو سياق استكشافي:

حينما نقرأ قصة ذي القرنين في القرآن الكريم، نرى أن السياق العام للقصة يميل إلى كونه خبرًا عن رحلة استكشافية عظيمة، قام بها أحد الأشخاص، أكثر من كونه ملحمة لأحد الملوك الفاتحين. فأحداث القصة القرآنية كلها عبارة عن مجموعة من المشاهدات الجغرافية والفلكية، بالإضافة إلى مقابلات ذي القرنين مع شعوب المناطق التي وصل إليها. ففي رحلته إلى الغرب شاهد ظاهرة عجيبة؛ وهي غروب الشمس في عين حمئة. وقابل في هذه المنطقة شعبًا أو قبيلة من القبائل. يقول تعالى: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا}. وفي رحلته إلى الشمال وجد أيضًا ظاهرة فلكية أخرى؛ وهي طلوع الشمس باستمرار في نهار دائم متصل بغير ليل، وقابل كذلك شعوب هذه المنطقة. يقول تعالى: {حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا}. وحينما تجاوز منطقة بين سدين قابل القوم الذين لا يكادون يفقهون قولا، وأخبره هؤلاء القوم عن يأجوج ومأجوج. يقول تعالى: {حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا}. وكل هذه الأخبار هي أخبار رحلات، وليست فتوحات.

ومما يدل على أن هذه المشاهدات كانت بمثابة الاكتشاف، وأن هذا

الرجل قد وصف ما لم يره أحد من قبله، هو تكرار الفعل «بَلَغَ» عند كل مكان يصل إليه، مثل «بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ»، «بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ»، «بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ» وكذلك تكرار الفعل «وَجَدَ» عند كل مشاهدة من مشاهداته أو مقابلة مع شعب من هذه الشعوب، مثل «وَجَدَهَا تَغْرُبُ»، «وَجَدَهَا تَطْلُعُ»، «وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا»، «وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا». فالأول يدل على أنه بلغ أماكن من الأرض لم يطأها مستكشف من قبله والثاني يدل على أنه شاهد ظواهر وشعوبًا لم تكن معروفة لمعاصريه.

رابعًا: براعة ذي القرنين العلمية في القصة القرآنية:

يخبرنا القرآن الكريم أن ذا القرنين حينما شرع في بناء السد استخدم أسلوبًا أشبه بصنع السبائك المعدنية؛ مما يدل على إتقانه -أو على الأقل- اطلاعه على صناعة المعادن. فقد صهر الحديد، ثم أسال عليه القصدير وهو ساخن ليكون سبيكة من الحديد المقاوم للصدأ «Stainless steel»، وهذا إذا ما اعتبرنا أن «القطر» الذي ورد في الآية هو القصدير على قول بعض العلماء، وهو ما نراه الأصوب، أما إذا كان القطر هو النحاس المذاب كما قال علماء آخرون، فإن السبيكة المتكونة حينئذ تكون هي البرونز. وقد استخدم الكير في سبك المعدن، ووضع البناء بمقاييس هندسية، يقول تعالى: {حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُواۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا}. وبغض النظر عن نوع المعدن المستخدم، فإن ما يثير التساؤل حقًا هو من أين أتى ذو القرنين بالقصدير أو بزبر الحديد؟

وبصورة أخرى هل فعل الأمر «آتوني» كان موجهًا إلى القوم الذين لا يكادون يفقهون، أم إلى معاونيه وطاقم رحلته؟ وما توصلنا إليه بعد تحديد شخصية ذي القرنين هو أن ذا القرنين كان يحمل معه القصدير، وأنه قد تعلّم صناعة السبائك في مكان آخر في أثناء رحلته، وقبل بلوغه إلى هذا المكان. وسيرد ذكر ذلك في الفصول التالية إن شاء الله.

خامسًا: الدليل من السنة:

سبق وأشرنا أنه لا توجد أحاديث في الصحيحين عن ذي القرنين، ولكن الدارج في كتب التفسير أن ذا القرنين كان رجلا طوّاف، طاف مشارق الأرض ومغاربها، وقد ورد في سبب نزول سورة الكهف عن ابن عباس أن مشركي قريش، بعثوا النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة، وقالوا لهم: سلوهم عن محمد، وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ما ليس عندنا. فقدما المدينة، فسألوا أحبار اليهود عن رسول الله ﷺ، ووصفوا لهم أمره ببعض قوله، فقالت لهم أحبار اليهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل. سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان من أمرهم، فإنه كان لهم حديث عجب. وسلوه عن رجل طوّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها وما كان نبؤه. وسلوه عن الروح». وقد جاء فيه سؤال اليهود عن ذي القرنين واضحًا بما لا يدع مجالًا للشك، فقد قالوا لكفار قريش: «سلوه» أي اسألوا محمد ﷺ «عن رجل طوّاف بلغ مشارق الأرض

ومغاربها». وهذا الكلام وغيره من أقوال المفسرين، يعطينا دليلًا على أن ذا القرنين كان رجلًا طوافًا.

وبعد أن قدمنا الأدلة التي تؤيد وجهة نظرنا من أن ذا القرنين كان رحالة، ولم يكن ملكًا، ننتقل إلى السؤال الثاني، من هو الرحالة أو المستكشف الذي قام برحلة تتشابه مع رحلة ذي القرنين؟ وهل هناك رحلة ذُكرت في التاريخ بها تلك المشاهدات؟

وهذا ما سنعرفه في الفصل التالي.

(٤)

لقاء ذي القرنين

تضم صفحات التاريخ قائمة كبيرة من الرحالة المستكشفين العظماء، الذين تركوا بصمات لا تمحى في التاريخ الإنساني بفضل اكتشافاتهم الجغرافية والعلمية. وحينما شرعنا في البحث عن المستكشف والرحالة الذي قام برحلة في التاريخ تتشابه مع رحلة ذي القرنين، بدأنا خيط البحث من اكتشاف منطقة القطب الشمالي، على اعتبار أن ما وصفه القرآن من مشاهدات جغرافية وفلكية في رحلة ذي القرنين إلى مطلع الشمس يتطابق مع السمات الجغرافية لهذه المنطقة.

وبتوفيق من الله عز وجل، كان هذا المدخل البحثي ميسرًا، وقادتنا الأدلة البحثية إلى الوصول إلى شخص نرى أنه الأقرب لأن يكون هو صاحب شخصية ذي القرنين.

هذا الشخص هو عالم فلكي، ومستكشفٌ فذٌ قام برحلة هي الأعجب في تاريخ الرحلات الاستكشافية من حيث كم الاكتشافات العلمية والجغرافية التي اكتشفها، الأمر الذي دفع عالم الآثار والمؤرخ البريطاني الشهير سير باري كانليف «Barry Cunliffe» إلى وصف هذه الرحلة بالرحلة الخارقة للعادة أو «Extraordinary Voyage»، ويكتب عنها كتابًا نحن بصدد ترجمته قريبًا بمشيئة الله. ويقول فيه عن الشخص الذي قام بتلك الرحلة:

«نحن لا نعرف سلوك هذا الرجل في أثناء تلك الرحلة، ولكن لا يمكن أن يقوم شخص بمثل هذه الرحلة إلا إذا تمتع بالمثابرة، والشجاعة، ونهم للمعرفة لا يشبع»

وهذا الأمر لمسناه بوضوح حينما قرأنا سيرة هذا الرجل. وإليك عزيزي القارئ نبذة عن هذا الرجل:

1. كان عالمًا فذًّا في الجغرافيا والطبيعة والرياضيات، وله أبحاث في الفلك والنجوم، وأبحاث عن المد والجزر، وقياس خطوط الطول والعرض، واستطاع أن يحدد موقع مدينته على خطوط الطول والعرض باستخدام المزولة الشمسية بصورة تتطابق مع موقعها الحقيقي الآن باستخدام الأقمار الصناعية. كما أنه أول من استخدم النجم القطبي المعروف بالدب الأصغر للإبحار شمالًا، بدلًا من نجم الدب الأكبر الذي كان يستخدمه البحارة في الملاحة. كما استطاع أن يثبت أن محور الأرض ليس في اتجاه الشمال مباشرة، وإنما يميل عن اتجاه الشمال قليلًا. هذا إلى جانب العديد من النظريات الرياضية والفلكية، حتى إن أحدث محركات البحث على الإنترنت، وأحد أشهر برامج الملاحة الآن يحمل اسمه. وكل هذا يذكرنا بقول الله تعالى عن ذي القرنين: {إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا}.

2. قام هذا الرجل برحلة إلى الغرب وصل فيها إلى منتهى الغرب من الأرض المعمورة، وقيل إنها مدينة «كيب فينيستري» «cape Finisterre»

الموجودة شمال غرب إسبانيا، وتسمى حافة العالم القديم «Land's end» أو نهاية اليابسة المعروفة من جهة الغرب. وفي هذا ما يذكرنا برحلة ذي القرنين الأولى إلى مغرب الشمس، أو إلى الغرب عمومًا كما ورد في القرآن الكريم.

3. وصف هذا الرجل غروب الشمس في مكان عجيب في أثناء رحلته، حيث أخبره السكان المحليون أن الشمس تغرب في مكان ما على الأرض، وقالوا له ما نصه: «هذا هو المكان الذي ترقد فيه الشمس» أو «here where the sun goes to rest». وهذا يذكرنا بقول الله تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ}.

4. أبحر ذلك الرجل غربًا بعد ذلك ليصل إلى جزيرة بريطانيا، ووصف شعوب هذه الجزيرة، وقيل إنه أول من أطلق اسم بريطانيا Britannia على تلك الجزيرة. وهناك وصل إلى «أرض القصدير»، وقد كان هذا هو الغرض الأساسي من رحلته، وهي منطقة في جنوب غرب إنجلترا تسمى كورنويل، وتحوي مناجم «القصدير». وقد رأى وتعلم طريقة صنع سبائك القصدير من السكان المحليين في هذه الجزيرة. وحمل معه سبائك القصدير في أثناء باقي الرحلة ليعود بها إلى موطنه الأصلي. وهذا يجيب عن السؤال الذي أوردناه في الفصل السابق، وهو من أين أتى ذو القرنين بالسبائك التي صُنع منها السد؟ ومن علمه صنعة تلك السبائك؟

5. استأنف هذا الرجل المسير بدافع الفضول نحو الشمال فاكتشف

اسكتلندا، وجزر أيرلندا. وهناك علم بوجود أرض تشرق عليها الشمس بصورة دائمة، وتتناقص فيها ساعات الليل، فقرر الإبحار شمالًا ليصل إلى نهاية الكون من جهة الشمال، والتي أسماها Thule أو ثول، وقيل إن ثول هي أيسلندا، وقيل جرينلاند ولكن نحن نميل إلى التفسير الأول، وكذلك أيده باري كانليف؛ بسبب الطبيعة البركانية لأيسلندا التي وصفها الرجل هناك، وهذا يذكرنا برحلة ذي القرنين إلى الشمال كما أوردنا في الفصل الأول.

6. حين وصل هذا الرجل إلى ثول وصف ظاهرة شمس منتصف الليل «Midnight sun» والتي تعني عدم غروب الشمس في المنطقة القطبية الشمالية، وكان وصفه بناء على رؤية ومشاهدة، ولم يسبقه أحد قط إلى هذا الوصف. وهو ما يذكرنا بقول الله تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا}. ومعنى «سترًا» أي لا تغرب، كما سبق وذكرنا في الفصل الأول. وفضلًا عن تلك الظاهرة، وصف هذا الرجل ظاهرة الشفق القطبي «aurora»، أو انعكاسات أشعة الشمس على القطب بألوان خلابة. ويعد تاريخيًا أول من فسر هذه الظاهرة.

7. وصل هذا الرجل إلى المحيط المتجمد الشمالي، ووصف ظاهرة الإبحار عبر قطع الجليد، ويقترح العلماء أنه دار حول مضيق بيرنج في طريق العودة، وهذا يعني أنه أول من وصل إلى منتهى الشرق والغرب في آن واحد، أي أنه **«حاز الأرض من قرنيها»** كما سبق وذكرنا.

8. وصف هذا الرجل عادات الشعوب والقبائل التي قابلها في رحلته على غير عادة المستكشفين الآخرين الذين ينشغلون بالبحث عن الذهب والكنوز، ولا يلتفتون بذات الأهمية إلى السكان أو الشعوب الذين يقابلونهم في طريق رحلاتهم. فكان لذلك أول من وصف عادات الإيرلنديين والقبائل الجيرمانية القديمة (Goths) وقبائل الإسكيمو وقبائل الروس البربر (Scythians). وهذا يذكرنا بالشعوب التي قابلها ذو القرنين في رحلاته، وبالأخص قبائل الإسكيمو أو «القوم الذين لا يكادون يفقهون قولا» كما سبق وذكرنا في الفصل الأول.

9. وفضلًا عن القصدير، اكتشف هذا الرجل مناجم لحجر الكهرمان أو العنبر «Amber» في بحر البلطيق في أثناء الرحلة ذاتها.

10. أهم ما يميز هذه الرحلة عن سائر الرحلات الاستكشافية الأخرى، أن هذا الرجل قد سلك طريقا بريًا وبحريًا في أثناء هذه الرحلة، لم يسلكه أحد من قبله. وقد دفعه إلى ذلك الظروف السياسية والتاريخية التي عاصرت الرحلة، إلى جانب شغفه العلمي الشديد. وسنذكر تفاصيل ذلك لاحقًا، ولكن ما يهمنا في هذا الشأن أن خط السير العجيب لهذه الرحلة يذكرنا بقول الله تعالى: {**وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا**}، أي براعة وحسن تدبير ومعرفة بمسالك الأرض ودروبها، كذلك يدلنا شغف هذا الرجل المعرفي اللا محدود بقول الله تعالى: {**ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا**}، وما زالت الكثير من الأبحاث تكتب إلى الآن لتوضيح مسارات تلك الرحلة العجيبة، وكيف استطاع هذا

الرجل أن يقوم بهذه الرحلة في ظل إمكانيات عصره.

11. وأخيرًا، فإن هذا الرجل الذي قام بتلك الرحلة المذهلة، حين عاد إلى قومه، لم يصدقه أحد، واتهمه معاصروه بالكذب والتلفيق، وأنكروا اكتشافاته جملة وتفصيلًا، وحين كتب كتابًا ليوثق فيه رحلته، لم يصل إلينا هذا الكتاب، ولم يتبقَ منه سوى اقتباسات أخذها معارضوه من كتابه، ووضعوها في كتبهم ليقذفوه بها. وبعد قرون من وفاته، ثبت صدقه بعد أن تكشفت تلك الأراضي أمام العلماء، وتبين صدقه في كل ما جاء به. وقد يكون ذكر القرآن لقصة هذا الرجل ورحلته بمثابة التكريم والإنصاف لما قام به. وكذلك لعلة أخرى سنذكرها عند الحديث عن الحكمة من قصتي يأجوج ومأجوج وذي القرنين في القرآن الكريم.

ويتبقى أن نسأل من هو هذا الرحالة الفذ؟

والإجابة أنه الرحالة العظيم «بيثياس المارسيلي» **أو** «Pytheas of Massilia»، وسنذكر في الفصل القادم التفاصيل التاريخية لهذا الرجل.

(٥)

بيثياس المارسيلي

يعود الفضل في كتابة هذا الفصل إلى المؤرخ البريطاني الكبير والأثري المعروف سير باري كانليف، الذي تناول هذه الرحلة بالتفصيل في كتابه «الرحلة الخيالية لبيثياس الإغريقي(41)» أو The extraordinary Voyage of Pytheas the Greek، والذي أعمل حاليًا على ترجمته كي تستفيد منه المكتبة العربية، ولهذا سيكون حديثنا في هذا الكتاب عن رحلة بيثياس بشيء من الإيجاز، ويستطيع القارئ أن يعود إلى المرجع الأصلي إذا أراد المزيد من التفاصيل.

وقد عاش بيثياس في مدينة مارسيليا جنوب فرنسا في القرن الرابع قبل الميلاد، وكانت آنذاك مقاطعة يونانية وميناء إغريقيًا هام يطل على ساحل البحر المتوسط. ولا يُعرف تحديدًا زمن مولده، ولكن قيل إنه توفي في عام 300 ق.م. وقيل أيضًا أن الرحلة قد تمت بين عامي 325 ق.م. و330 ق.م. في عصر الإسكندر الأكبر، وقد استغرقت حوالي خمس سنوات، وقيل في رواية أخرى ثلاث سنوات. كما ذكر المؤرخان «تايموس» و«ديكياروس» أن عمر بيثياس وقت قيام الرحلة كان قد جاوز الأربعين. مما يعني أنه عاصر صعود نجم فيليب المقدوني واغتياله، وعاصر فتوحات الإسكندر الأكبر وانتصاراته على الفرس، ثم شهد تقسيم إمبراطورية الإسكندر الأكبر على

قادته بعد وفاته، ومن ثم، بزوغ نجم مدينة الإسكندرية في عصر بطليموس الأول. ومن العلماء الذين عاصروه الفيلسوف الكبير أرسطو (385 - 322 ق.م.).

وهناك نحت لتمثال «بيثياس المارسيلي» صممه الفنان الفرنسي الشهير «أوغسطس أوتين» (Auguste Ottin) في عام 1850، ووُضع في شارع لاكانبير الرئيسي في مدينة مارسيليا على مبنى البورصة. وحين شاهدت التمثال في أثناء زيارتي لمارسيليا تعجبت من الهيئة التي صورها الفنان في نحته. حيث يبدو بيثياس في النحت مرتديًا زيًا مكونًا من رداء طويل أشبه بالجلباب، تحته سروال طويل، وقد ألقى على كتفيه عباءة، وأمسك في يده بعصا، وبجواره كلب غزير الفراء. وهذا يخالف الشكل التقليدي للإغريق في العصر الذي عاش فيه بيثياس. حيث اعتاد الرجال الإغريق آنذاك أن يرتدوا الخيتون اليوناني المكون من رداء قصير يصل إلى منتصف الفخذ، ولا يرتدون سراويل على الإطلاق.

وأكثر ما يثير الغرابة في هذا التمثال هو العصا التي يمسك بها بيثياس في يديه، والكلب الذي ينام تحت قدميه. حتى يخيل لمن يراه أنه أمام تمثال لشخص شرقي وليس لرحالة إغريقي. شكل (19)

(٥) بيثياس المارسيلي - صفحة 179/ 235

شكل (19) تمثال بيثياس المارسيلي ممسكًا بعصاه ويرقد إلى جواره كلبه.

وهذه الهيئة من وحي خيال النحات الذي صنع التمثال، ولكننا نجد الفنان نفسه يصنع تمثالًا آخرًا للرحالة المارسيلي «عثيمينيس» (Euthymenes)، الذي استكشف الساحل الغربي لإفريقيا وسبق بيثياس بمائة عام. وقد نُحِت هذا التمثال بالزي والهيئة الإغريقية التقليدية. شكل (20)

شكل (20) مثال عثيمينيس مكتشف الساحل الغربي لإفريقيا مرتديًا الخيتون الإغريقي

وهذا الاختلاف في الزي ربما يرجع إلى فطنة الفنان للاختلاف في الأصول بين الاثنين، حيث كانت مارسيليا في القرن الرابع الميلادي مدينة

منفتحة لكثير من التيارات الفكرية والأعراق المختلفة، التي جاءت من وسط أوروبا وآسيا، وسنورد تفاصيل ذلك لاحقًا إن شاء الله.

ونذكر الآن الظروف السياسية التي عاصرت تلك الحقبة التاريخية لنتعرف على الأسباب التي أدت إلى قيام تلك الرحلة، كما أن دراسة تلك المرحلة التاريخية تعطينا تصورًا عامًا لشخصية بيثياس المارسيلي.

مارسيليا القديمة (ماساليا):

تقع مدينة مارسيليا على ساحل البحر المتوسط. وتذكر أغلب كتب التاريخ أن منْ أسس هذه المدينة هم قبائل بدائية كانت تعيش على تلك السواحل قبل أن يحتلها الترك الإغريق أو «الفوقيين» «phocaeans» القادمين من مدينة «فوقيه» التركية في عام 600 ق. م. وقد أُطلق عليها قديمًا اسم «ماساليا» (Massalia)، والتي تعني في لغة الفوقيين «حامي المكان» نظرًا لأنها تقع في ثغر بين جبلين، مما يجعلها خليجًا محصنًا طبيعيًا من هجمات البحر، وبالأخص الهجمات القادمة من عدوهم اللدود على الجانب الآخر من المتوسط، في إمارة قرطاج التي يحكمها الفينيقيون. شكل (21)

قادس
قرطاجنة
مرسيليا

شكل (21) مارسيليا، والمدن الكبرى في القرن الخامس والرابع قبل الميلاد

وخلال القرن الخامس قبل الميلاد، تزايدت الهجرات من الشرق إلى مارسيليا، بسبب اجتياح الفرس لبلاد الشام ومصر وآسيا الوسطى، وكان الوصول إلى مارسيليا ميسّرًا عن طريق البحر أو عن طريق البر، وبحلول القرن الرابع قبل الميلاد، أصبحت مارسيليا مدينة عالمية، تضم أعراقًا مختلفة من ترك، وإغريق، وشرقيين، وقبائل الكِلت (البربرية) القادمة من الشمال، وازدهرت تجاريًا في عصر فيليب المقدوني، وبلغت أكثر ازدهار لها في عصر الإسكندر الأكبر.

النزاع الاقتصادي بين الإغريق والفينيقيين:

كان الفينيقيون ملوك البحر بلا منازع، وقد أسسوا حضارة عظيمة على ساحل البحر المتوسط استمرت لقرون. وبفضل براعتهم البحرية، بنى الفينيقيون الكثير من المستعمرات والموانئ على سواحل المتوسط. ومن أشهر تلك المستعمرات: عكا ورودس وصور والجبيل وصقلية ومالطا وقرطاج وترشيش بإسبانيا، كما عبروا مضيق جبل طارق، الذي كان يسمى مضيق جبل كالبي، وأبحروا في المحيط الأطلسي، الذي كان يسمى ببحر الظلمات، ووصلوا إلى سواحل إفريقيا وشبه جزيرة كورنويل في بريطانيا. بل إنه قد صدر كتاب بعنوان «**معذرة كولومبوس، لست أول من اكتشف أمريكا**(42)» للباحثة «هاينكة زودهوف»، وترجمه للعربية د. حسن

عمران، وذُكِر فيه أن الفينيقيين قد سبقوا كولومبوس بقرون، في الوصول للأمريكتين، وهناك في أمريكا بعض الشواهد التي تدل على ذلك، منها العثور على آلاف القطع الأثرية في مقابر في جواتيمالا، وكذلك النقش الشهير المعروف بنقش بارايبا في البرازيل، ونقوش اكتشفها «ستيف بارثالوميو» في وسط ولاية في الولايات المتحدة الأميركية.

وفي منتصف القرن الرابع قبل الميلاد، أي قبل الزمن الذي وقعت فيه أحداث رحلة بيثياس، كان التاريخ قد انحسر عن دولة فينيقيا الأم في الشرق، بعد أن اكتسحها الفرس، ولم يتبق من هذه الإمبراطورية العظيمة سوى مدينة قرطاج، التي استطاعت أن تمد نفوذها على بلاد المغرب العربي وإسبانيا لتؤسس لنفسها إمارة جديدة في البحر المتوسط، عُرفت باسم إمارة قرطاج.

وكان القرطاجيون يسيطرون على سبل التجارة في البحر المتوسط الأمر الذي أزعج اليونانيين بشدة، ولا سيما وأن ذلك العصر كان عصر الفتوحات والتوسعات بالنسبة للإغريق. وحدثت مصادمات، لم يتمكن فيها الإغريق من التغلب على أسطول القرطاجيين الضخم والأكثر تطورًا، كما لم يتمكنوا من إخضاع أي من الموانئ التابعة لهم. وكان رد القرطاجيين في كل مرة هو فرض المزيد من الأسعار والضرائب على المنتجات التي يصدرونها إلى أوروبا. وكان المنتج الأكثر تأثيرًا على الصناعة في أوروبا آنذاك هو معدن «القصدير».

كان القصدير أحد المعادن الأساسية في تصنيع السبائك، والتي تدخل بدورها في تصنيع الدروع والسيوف والعملات والتماثيل وغيرها. وعلى عكس باقي المعادن، لم تكن مناجم القصدير معلومة لدى الإغريق، فكل ما يعرفونه هو أن القرطاجيين، الذين يحتكرون تجارته، يأتون به من مكان ما غرب مضيق جبل طارق، والذي كان يسمى قديمًا مضيق جبل كالبي، وسماه الإغريق أعمدة هرقل. وكان الإغريق يهابون الإبحار غربًا، ويطلقون على المحيط الأطلسي اسم «بحر الظلمات». وتحكي الأساطير الإغريقية عن أوديسيوس العظيم بطل ملحمتي الإلياذة والأوديسة، الذي خاض غمار هذا البحر، ولاقى هناك الأهوال، وهذا يوضح كم كان تخوفهم من خوض غماره. ولعل الأساطير التي روجها القرطاجيون عن هذا البحر، هي التي رسمت هذه الصورة المخيفة عن ذلك البحر خصوصًا بعد الرحلة الشهيرة التي قام بها «هملكون القرطاجي» «Himilco» عام 450 ق.م. بتكليف من أخيه الملك «حانون القرطاجي»، والتي وصل فيها إلى مناجم القصدير على سواحل بريطانيا، وكتب حينها كتابًا أسهب فيه -كذبًا- في وصف وحوش البحر من حيتان وأفاعي وأخطبوطات كي يصرف الإغريق عن خوض غماره(43).

وقد أدى احتكار القرطاجيين لتجارة القصدير إلى ارتفاع سعره بجنون في الأسواق الأوروبية، خصوصًا بعد أن زاد الطلب عليه نظرًا لكثرة فتوحات الإسكندر شرقًا. فاجتمع تجار أوروبا في مارسليا وقرروا أن يضعوا حدًا لهذا الاحتكار. وجاء القرار بأن يشترك الجميع في تمويل حملة بحرية ضخمة

لتصل إلى مناجم القصدير في بحر الظلمات، ثم تعود به إلى أوروبا. وكانت أكبر العقبات أمام تنفيذ هذا القرار هو كيف ستتمكن الحملة من عبور مضيق جبل طارق الذي يسيطر عليه القرطاجيون؟ ومن يستطيع خوض غمار الأطلسي بما فيه من أهوال؟ وكان الاختيار أن يتم الاستعانة بأكبر عالم في الفلك والجغرافية والملاحة آنذاك، ليقود هذه الحملة حتى يستطيع أن يسلك دربًا بعيدًا عن الأساطيل القرطاجية عند مضيق جبل طارق، وبالطبع كان هذا العالم هو «بيثياس المارسيلي».

الرحلة الخيالية

يحكي لنا «كليمنتس ماركم» في مقالته «بيثياس مكتشف بريطانيا(44)» في مجلة الجغرافيا، كيف بدأ بيثياس رحلته إلى أرض القصدير فيقول:

«بعد أن وافق بيثياس على أن يقوم بتلك الرحلة إلى أرض القصدير، بدأ الإعداد لرحلته بحساب موقع مارسيليا على خطوط الطول والعرض. واستخدم في ذلك المزولة الشمسية وحساب زاوية الظل لتحديد نقطة البداية لرحلته، والتي ستكون نقطة العودة مرة أخرى بعد انتهاء الرحلة. واختار بيثياس النجم القطبي الأصغر ليكون دليله في هذه الرحلة. يقول كليمنتس: «ونحن لا نتصور أن أحدًا في عصر الإسكندر الأكبر يبدأ رحلته بتحديد إحداثيات نقطة المغادرة والعودة، وتحديد مسار السفر على غرار الأجهزة الملاحية الحديثة، مثلما فعل بيثياس. كما أننا لا نظن أن أحدًا قد

(٥) بيثياس المارسيلي - صفحة 188/ 235

سبقه إلى مثل هذا الإنجاز».

وكان الجزء الأول من الرحلة هو الاتجاه غربًا للوصول إلى الساحل الغربي لشبه جزيرة أيبيريا (إسبانيا والبرتغال)، ونظرًا لأن هذا الساحل هو أقصى الغرب من الأرض المعمورة آنذاك، وأن القبائل كانت تحج قديمًا إلى ساحل المحيط الأطلسي كي ترى غروب الشمس الأخير على الأرض المعمورة، فسوف نسمي هذا الجزء من الرحلة «الرحلة إلى مغرب الشمس».

الرحلة إلى مغرب الشمس:

اتفقت جميع المصادر أن بيثياس المارسيلي قد اتجه غربًا في الجزء الأول من رحلته، حتى وصل إلى الساحل الغربي من شبه جزيرة أيبيريا، ولكنها اختلفت فيما بينها في كيفية الوصول، وهناك نظريتان لتفسير ذلك.

النظرية الأولى، ترى أنه وصل إلى تلك المنطقة عن طريق البحر، وأنه أبحر بمحاذاة الشاطئ وتوقف عند بعض الموانئ، مثل إمبوريوم (فرنسا) أرتيميزيا (إسبانيا) ومانكه (مالجا - إسبانيا)، ثم عبر مضيق جبل طارق ليدور حول الجزيرة، ثم وصل في النهاية إلى أستريمنس التي تعرف الآن بمدينة «كيب فينيستري(45)». شكل (22)

شكل (22) الطريق البحري إلى مغرب الشمس

ويعيب هذه النظرية من وجهة نظر «باري كانليف» شيئان، منها أن القرطاجيين يسيطرون على موانئ هذا الطريق كلها، وأن هذا قد يؤدي إلى

صراع يتسبب في فشل الرحلة، كما أنه طريق طويل جدًا مقارنة بالطريق البري المعروف للتجارة، وللحج منذ قديم الأزل.

أما النظرية الثانية، والتي يؤيدها باري كانليف فهي تفترض أن بيثياس قد سلك الطريق البري ليصل إلى الساحل الغربي لإسبانيا، واختُلِف أيضًا في النقطة التي انتهى عندها. فيرى البعض أنه سار غربًا في خط مستقيم من مارسيليا إلى كيب فينيستري، ويرى آخرون أنه اتجه نحو الشمال الغربي ليصل إلى سواحل بورديجالا (بوردو الحالية(46)). شكل (23)

شكل (23) المقترحات للمسار البري في الرحلة إلى مغرب الشمس

ونحن نميل إلى المسار البري نحو كيب فينيستري، فمن ناحية، هذا هو المسار الأسهل، لأنه لا يتطلب سوى السير على خط مستقيم جهة الغرب، ومن ناحية أخرى لأن مدينة «كيب فينيستيري»، كما سبق وذكرنا، هي

«حافة العالم» أو «land's end» عند الإغريق، وهي مشتقة من المقاطع اللاتينية Finis بمعنى نهاية، وTerrae بمعنى الأرض، أي نهاية الأرض. وقد اعتقد الإغريق ومن بعدهم الرومان أن أرواح الأموات تترك اليابسة لتصل إلى بحر الظلمات عند ساحل هذه المدينة، ولهذا كان يُحج إليها قديمًا من خلال هذا الطريق. كما عُثِر على عملات معدنية إغريقية تعود إلى القرن الرابع في هذه المدينة. ويخبرنا «باري كانليف» أن الطريق البري الذي مر به بيثياس كان يمر بين ثقافتين، أو جماعتين عرقيتين، الأولى هي الشعوب الجنوبية المسماة بالشعب الأكويتاني (Aquitanians)، والثانية هي الشعوب الشمالية، ويسمون باسم الشعوب الكِلتية (Celtic)، ويرجح باري كانليف أن بيثياس ورفاقه كانوا على دراية جيدة بلغة الكِلت؛ لأنها كانت لغة منتشرة ودارجة آنذاك في غرب أوروبا ومارسيليا، خصوصًا في الطبقات الدنيا. وحين وصل بيثياس ورفاقه إلى الساحل، بدأ في تجهيز المركب أو المراكب التي سيتحركون بها. ويرى «باري كانليف» أنها كانت عدة سفن متوسطة الحجم، مستندًا إلى دليل أركيولوجي عن أحجام السفن آنذاك، فضلًا عن أن الحملة كانت في طريقها لجلب القصدير، وهذا سيحتاج إلى عدة سفن للشحن، وليس سفينة واحدة(47). وأنا أميل إلى هذا الرأي، فحين زرت المتحف اليوناني في مارسيليا، ورأيت أحجام السفن المكتشفة في قاع الميناء القديم وجدت أن أحجامها متوسطة، ولا بد من استخدام أكثر من واحدة للقيام بتلك الرحلة. شكل (23)

شكل (23) نموذج لحطام سفينة تعود إلى عصر الإغريق، في المتحف اليوناني بمارسيليا وبجوارها المؤلف، للإشارة إلى حجمها المتوسط

وتعتبر هذه المحطة في رحلة بيثياس إحدى حلقات الربط الهامة بين رحلة بيثياس التاريخية وبين رحلة ذي القرنين. فتسمية مدينة كيب فينيستري، بحافة العالم الغربي، تذكرنا برحلة ذي القرنين التي قام بها إلى مغرب الشمس. وينبئنا القرآن الكريم عن ظاهرة علم بها ذو القرنين في أثناء تواجده عند مغرب الشمس؛ وهي غروب الشمس في عين حمئة، فما المقصود بالعين الحمئة؟ وهل هناك في رحلة بيثياس ما يتشابه مع هذا الحدث العجيب؟

والحقيقة أننا نجد في قصة بيثياس المارسيلي ما يدل على أنه علم أن

الشمس تغرب في عين بركانية ضخمة. فبعد أن وصل إلى حافة الأرض، وتوقف للتزود بالطعام والشراب، وتجهيز المراكب التي ستعبر به البحر نحو أرض القصدير، حدثت واقعة جعلته لا يفكر في العودة إلى مارسيليا بعد جلب القصدير، والاتجاه نحو الشمال، بعد أن حقق الهدف الأصلي من رحلته. هذه الواقعة هي معلومة حصل عليها من قبائل البرابرة «The Barbarians» الذين قابلهم في هذا المكان. وكلمة «برابرة» هي كلمة يونانية قديمة كانت تطلق على غير المتحدثين باليونانية، ومع كثرة الفتوحات اليونانية صارت الكلمة تطلق على أعداء اليونانيين من الفرس والجرمانيين وغيرهم. وفي عصر بيثياس المارسيلي، كانت الكلمة تطلق على القبائل المغيرة وقطاع الطرق، ولا سيما القبائل الكلتية المنحدرة من الشمال، وكذلك بعض قبائل الشمال الإفريقي الذين عملوا في القرصنة على السفن التجارية. ويخبرنا بيثياس أن هؤلاء القوم قد أفصحوا له بمعلومة عن المكان الذي ترقد فيه الشمس، وقالوا له أن هذا المكان تتضاءل فيه ساعات الليل حتى تصل إلى ساعتين أو ثلاثة، في إشارة إلى أن هذا المكان يقع في الشمال، ولنقرأ النص كما ورد في بحث «مشكلة ثول التي وصفها بيثياس» للباحث «أيان وايتكر»:

«Pytheas says that the barbarians revealed to us the sleeping place of the sun; it was found that in these regions the night was very short, lasting in some places two hours, in

others three(48)»

وترجمة النص هي: «يقول بيثياس لقد كشفت لنا قبائل البرابرة عن المكان الذي ترقد فيه الشمس، وفي هذه المناطق يكون الليل قصيرًا للغاية، حتى إنه يستغرق في بعض الأماكن ساعتين وفي أماكن أخرى ثلاث ساعات».

ولم يذكر لنا بيثياس، أو من اقتبسوا منه، لماذا أخبرته تلك القبائل البربرية بهذه المعلومة، وما المقابل لذلك. خاصة أن بيثياس قد استخدم عبارة «revealed to us» التي تعني أفصحت لنا، أو كشفت، مما يدل على أن تلك المعلومة كُشِفت بإرغامهم وليس طواعية. وقد يساعدنا الربط بين المعلومات الواردة عن الرحلة التاريخية والقصة الدينية، في وضع تصور لما حدث بين بيثياس وبين القبائل التي قابلها في هذا الجزء من الرحلة. فالقرآن الكريم يخبرنا بأن ذا القرنين قد قابل قومًا عند مغرب الشمس استحق بعضهم العقاب والتنكيل. وبالفعل قابل بيثياس بعض السكان المحليين، وهؤلاء أسماهم في كتابه «أوستيميوي» «Ostimioi»، وهم من أمدوه بالطعام والشراب، واستأجر منهم أو اشترى المراكب، التي أعدها للرحلة البحرية، ثم قابل بعد ذلك أناس وصفهم وصفًا أحط، بالبرابرة، وهذا يدل على أنهم معتدون، وربما حاولوا الاعتداء على حملته، فتمكن منهم وحصل في مقابل ذلك على تلك المعلومة الهامة. وتفسر لنا هذه الحادثة لماذا اتجه بيثياس إلى الشمال، ولم يعد إلى مارسيليا بعد أن

وصل إلى أرض القصدير، وهذا المعنى أكده باري كانليف حين قال: «لا يمكن أن يفوّت شخص يمتلك الفضول مثل بيثياس فرصة استكشاف هذه السواحل بمراكبه، ولا يفعل»

والسؤال، ما المكان الذي قصده البرابرة بالموضع الذي «ترقد فيه الشمس»؟، والحقيقة أن أقوال المؤرخين قد اختلفت بشأنه، ولكن أكثر التفسيرات قبولًا، بناء على الدراسات الجديدة التي تمت لخطوط العرض، التي تتطابق مع طول الليل الذي ذكره البرابرة، هو «فوهة كالي» «Kaali Crater»، في أستونيا. وهذه الفوهة بها تسع بحيرات حارة نشأت نتيجة اصطدام نيزك بهذه المنطقة، والأساطير القديمة في هذه المنطقة تقول إن إله السماء أوكو، يصنع شمسًا جديدة كل يوم، وتعود الشمس لترقد عند الغروب في هذا المكان، وأستونيا رغم أنها تقع في الشمال، إلا أنها لا تزال عند الساحل الغربي لأوروبا(49).

وأيًا ما كان الموقع الذي توجد به هذه البحيرة، فإننا نرى أن قيمة هذه البحيرة أنها كانت سببًا في أن ينتوي بيثياس أن يعدل من مسار رحلته، وألا يكتفي بالحصول على القصدير والعودة، بل الاستمرار في قطع الدروب والمسالك، ليكتشف جزيرة بريطانيا وأيرلندا وأيسلندا والنرويج والمحيط المتجمد الشمالي. وصدق الله إذ يقول بعد أن ختم قصة ذي القرنين في مغرب الشمس: {ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا}.

بيثياس في أرض القصدير:

انطلقت مراكب الحملة لتشق عباب المحيط الأطلسي نحو أرض القصدير، والتي عُرفت في كتب الجغرافيين القدامى أمثال «بليني» «Pliny» و«ديودورس» «Diodorus» باسم جزيرة بيليريون. وهي تمثل شبه جزيرة كورنويل «Cornwall» حاليًا في الجنوب الغربي من بريطانيا. شكل (24)

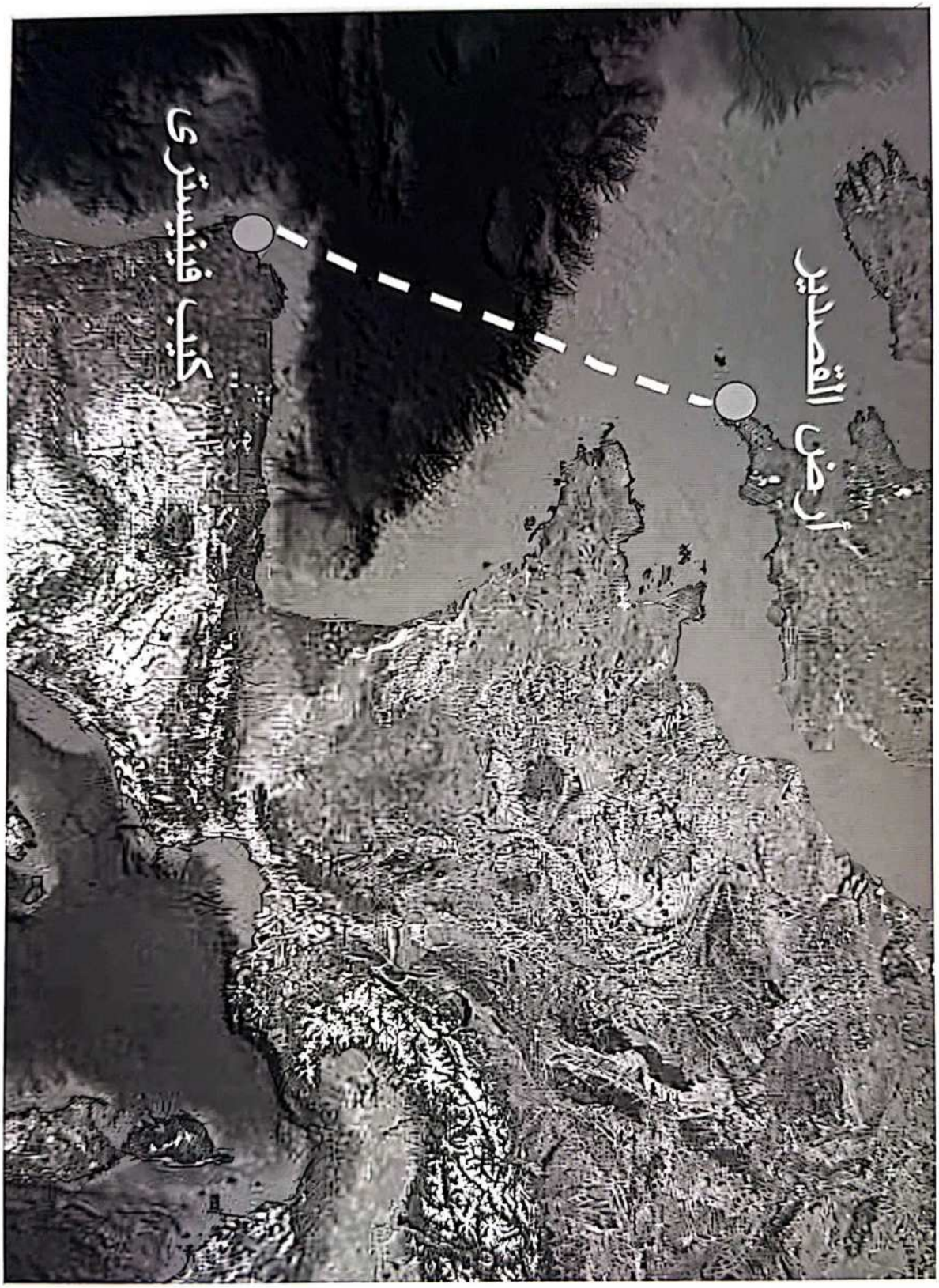

شكل (24) الإبحار إلى أرض القصدير

وكانت هذه المنطقة تشتهر بالتعدين، وبمناجم النحاس والقصدير، ووصف بيثياس أهل بريليون بأنهم قوم اكتسبوا من عملهم في التجارة لينًا في التعامل، وحضارة عن باقي القبائل التي قابلها على الجزيرة، على عكس

كان يُشاع عنهم في العالم القديم، وشاهد بيثياس كل ما يتعلق بصناعة القصدير في هذه المدينة، ووصفه في كتابه بدءًا من استخراج المعدن الخام من المناجم، ثم تصنيعه وتخزينه وشحنه في ألواح وسبائك قبل بيعه إلى التجار.

ونعود إلى قصة ذي القرنين، فقد كان للقصدير أهمية خاصة في هذه القصة، وأشرنا إليها في الفصل المتعلق ببناء السد. فقد بنى ذو القرنين السد أو الردم باستخدام سبيكة معدنية من الحديد المقاوم للصدأ «stainless steel»، عن طريق مزج الحديد المنصهر بالقصدير المذاب أو القطر. وتساءلنا من أين أتى بالقطر أو القصدير، وما خبرته في التعدين وصنع السبائك؟ وتجيبنا رحلة بيثياس عن ذلك، فقد حمل ما اشتراه معه من قصدير في سفينته في أثناء استئناف رحلته إلى الشمال، كما أنه شاهد ورأى بعينه كيفية تصنيع القصدير والسبائك.

ولم تتوقف رحلة بيثياس في جزيرة بريطانيا على البقاء في بيليريون أو أرض القصدير. بل يذكر باري كانليف أن بيثياس وصف مشاهدات كثيرة في أماكن متفرقة من جزيرة بريطانيا عمومًا، مما يدل على أنه قد تجول في الجزيرة، ومكث بها لعدة أشهر. ويصف كليمنتس ذلك فيقول: «انطلق بيثياس في رحلة فوق اليابسة لا تقل عجبًا وصعوبة عن رحلته البحرية التي قام بها للوصول إلى أرض القصدير. فقد انطلق مع رفقاء رحلته عبر منخفضات بريطانيا ووديانها، قطع سهول هامبشير وويلتشاير، واخترق غابة

«أندريدا» العظمى. وكان يسجل طريق الذهاب مستدلًا بالنجوم والتضاريس، حتى يستطيع العودة إلى موقعه مرة أخرى». ولهذا قال باري كانليف: «لم يكن بيثياس مجرد رحالة، وإنما شخص مهتم بالأنثروبولوجي وبالبحث عن السكان الأصليين في الأماكن التي زارها». وكان من نتاج هذا الشغف والفضول العلمي، أن استطاع بيثياس أن يستكشف الجزء الشمالي من جزيرة بريطانيا، ويعتقد باري كانليف أنه ربما قضى فصول الشتاء في الجزء الجنوبي الدافئ من الجزيرة، قبل أن يستكشف الجزء الشمالي في فصل الصيف.

وعلى أية حال، ظل بيثياس متجهًا نحو الشمال مدونًا في كل محطة من محطاته طول الليل وطول النهار، ومحددًا خطوط العرض بمزولته، وتاركًا لنا وصفًا دقيقًا لكل مكان يصل إليه. حتى وصل إلى مجموعة جزر تقع شمال اسكتلندا، يُعتقد أنها جزيرة «أوركني» «Orkney» والدليل كما ذكر باري كانليف: «إن بيثياس وصف منازل هذه الجزيرة، بأنها من الحجارة السميكة وتشبه الأبراج»، ويرى باري كانليف أن هذا الوصف ينطبق على منازل القرن الرابع قبل الميلاد، المعروفة باسم البروخ «Broch»، ولا يزال بعضها قائمًا حتى الآن في سكوتلاند وشيتلاند وأوركني. شكل (25)

شكل (25) منزل في جزيرة أوركني يعود إلى القرن الرابع قبل الميلاد على الطراز المعروف بالبروخ. المصدر ويكبيديا

وحين وصل بيثياس إلى جزيرة أوركني، كان من المفترض أن يعود أدراجه، ولكنه لاحظ شيئين، أن طول النهار يصل إلى تسع عشرة ساعة، وطول الليل يصل إلى خمس ساعات، وليس ساعتين أو ثلاثة كما قال البرابرة، ولهذا تأكد لديه أن هناك أرضًا لا تزال جهة الشمال، والشيء الآخر الذي أكد له ذلك، أن حركة أسراب الطيور بين الشمال والجنوب كانت متزامنة مع وجوده هناك، مما يدل على أن أرضًا ما صالحة للحياة لا تزال في قلب ذلك المحيط. وعلى هذا استأنف بيثياس رحلته، وأتبع سببا، نحو الشمال. وقد أطلق على هذا المكان اسم «ثول» «Thule»، وكلمة ثول تعني في لغة الشمال «النار»، وقد يُقصد بها أيضًا النور، أي المكان الذي يغمره النور، حيث لا ظلام. وهذا ما وجده بيثياس في مطلع الشمس.

بيثياس في مطلع الشمس:

بناء على ما وصل إلينا من معلومات عن رحلة بيثياس في كتب معارضيه، نجد أن بيثياس قد أبحر من بريطانيا نحو الشمال مسافة ستة أيام. وقد اختلف المؤرخون حول المكان الذي وصل إليه بيثياس. فمنهم من ذكر أنها بعض الجزر القريبة من شمال بريطانيا مثل جزر «شيتلاند» (Shetland Islands)، ومنهم من رأى أنه اتجه إلى سواحل النرويج، ومنهم من ذكر أنها أيسلندا، وسبب هذا الخلاف يرجع إلى نقطة الانطلاق، وإلى

السرعة المستخدمة آنذاك. ويرى باري كانليف، وكثير من المؤرخين، أن الشواهد كلها تؤكد أن ثول التي وصفها بيثياس تنطبق على أيسلندا، والدليل على ذلك أنه لو افترضنا أن متوسط سرعة السفن آنذاك 3.5 إلى 4 عقد في الساعة، يكون بيثياس قد وصل إلى أيسلندا في خلال ستة أيام من الإبحار، مع الأخذ في الاعتبار صعوبة الإبحار في ذلك الجزء من المحيط الذي وصفه بيثياس بالبحر المتكتل أو (congealed sea). ويرى باري كانليف أن وصف بيثياس لشعب ومدينة ثول ينطبق على أيسلندا أيضًا حيث يعيش شعب ثول على زراعة الحنطة والأعشاب والجذور وكذلك يتوافر عندهم الحبوب والعسل. ولأن الشمس لا تشرق بصورة دائمة (طيلة العام) فإنهم يخزنون الحبوب في أجران كبيرة بدلًا من درسها؛ بسبب غياب الشمس وسقوط المطر. وفي الطبعة الأولى من هذا الكتاب كنت أرى أن ثول تقع في جرينلاند نظرًا لأن مدينة كاناك (Qaanaaq) في جرينلاند كانت تحمل اسم ثول قديمًا، ولكن الأبحاث الحديثة التي نُشرت تؤكد أن ثول هي أيسلندا. ولهذا استبعدتُ هذه الفرضية. (شكل 26)

وبناء على ما سبق فإن بيثياس المارسيلي قد وصل إلى مدينة «Thule» أو أيسلندا، فماذا رأى هناك؟

شكل (26) الرحلة من أوركني إلى ثول (Thule)

إن أعظم ما وصفه بيثياس في «ثول» هي «شمس منتصف الليل»، أو وجود نهار دائم بلا ليل في فصل الصيف، ووجود ليل دائم بلا نهار في فصل الشتاء. فقال: «إن ثول كما ذكرت لا يوجد بها ليل في الانقلاب الصيفي حين تمر بعلامة برج السرطان، ولا يوجد بها نهار في الانقلاب الشتوي، ويعتقد البعض أن هذا يستمر لستة أشهر(50)».

(٥) بيثياس المارسيلي - صفحة 205/ 235

ويخبرنا القرآن الكريم أن ذا القرنين حين وصل إلى مطلع الشمس وجدها تطلع بغير ستر على قوم هناك، وقد قلنا إن ستر الشمس هو الليل، وهذا ينطبق على المشاهدة التي وصفها بيثياس، ولذلك فهو أول من كتب عنها في العالم القديم. ولم يذكر لنا القرآن الكريم آية تفاصيل عن هذا اللقاء، واكتفت الآيات بالإشارة فقط إلى هذه الظاهرة الفلكية، وهذا الشعب الذي قابله ذو القرنين، والذي نعتقد أنه شعب أيسلندا من الإسكيمو.

ما بعد ثول أو مطلع الشمس:

يتساءل باري كانليف: «هل يمكن لشخص وصل إلى هذه المسافة، يمتلك الفضول، وجابه كل هذه الأخطار أن يعود أدراجه دون أن يرى معجزات السماء في منطقة القطب؟»، ويقصد بذلك، ظاهرة الشفق القطبي أو الأورورا. وتخبرنا المقاطع التي وردت إلينا من كتاب بيثياس المفقود في كتب معارضيه أنه أبحر لمدة يوم واحد من سواحل ثول -أو أيسلندا- قبل أن يصل إلى مياه المحيط المتجمد الشمالي.

ويذكر المؤرخ القديم «بليني» (Pliny) في روايته عن رحلة بيثياس أن هذا البحر قد أسماه البعض من سكان ثول بحر الكورنيم.

«One day's sail from Thule is the frozen ocean, called by some the Cronian Sea.»

ويذكر بيثياس مدى الصعوبة التي واجهته عند الإبحار في هذا المحيط؛

فقد كانت قطع الجليد الضخمة تطفو فوق سطح المحيط، فلا يستطيع المرء أن يبحر فيه، ولا يستطيع أن يقطعه سيرًا على الأقدام، وهذه الظاهرة يُطلق عليها اسم الانحدار الجليدي «Ice drifting»، والتي وصفها المؤرخ القديم «سترابو» «Strabo» على لسان بيثياس قائلًا: «يتحدث بيثياس عن الماء المحيط حول ثول وعن تلك الأماكن التي لا يوجد فيها يابسة، ولا بحر ولا هواء، بل مزيج من هذه الأشياء، مما يجعلها أشبه بقناديل البحر الضخمة التي لا يستطيع المرء أن يسير عليها أو أن يبحر خلالها»

ويعلق باري كانليف عن شجاعة بيثياس، فيقول: «يستطيع المرء أن يتخيل كيف استطاع بيثياس بمجموعة من البحارة المحليين أن يبحر إلى أيسلندا، ثم يبحر داخل المحيط المتجمد الشمالي لمدة يوم!»

ويرجح باري كانليف أن السبب في صعوبة الإبحار، هو شكل وعمق المراكب التي استخدمها بيثياس، والتي قد لا تلائم المحيط المتجمد، وقارن ذلك بالسفن التي كان يصنعها الإينوت إسكيمو في أيسلندا، وهي مراكب جلدية خفيفة، تسمى أومياك «Umiak» وتستطيع الإبحار بسهولة ويسر في الأماكن المتجمدة.

وقد وصف بيثياس المارسيلي ظاهرة انعكاس أضواء الشمس القطبية والمعروفة بظاهرة الشفق القطبي أو الأورورا بوريباليس «Aurora Borealis»، والتي يعتبرها العلماء إحدى أجمل الظواهر الكونية وأكثرها بهجة على الإطلاق، نظرًا لألوانها الخلابة والمتعددة. وربما استمع إلى

أساطير الإسكيمو الكثيرة حول هذه الظاهرة، ولا عجب، فكما يقول باري كانليف: «كان بيثياس فيلسوفًا، وجامعًا للحكايات ومسح شمال أوروبا حتى حدود العالم الشمالية(51)».

ونعود إلى قصة ذي القرنين فحين غادر مطلع الشمس، ذهب إلى مكان أسماه القرآن **«بين السدين»**، وربما كان السدان المقصودان هما الجبال الجليدية والمياه المتجمدة في المحيط المتجمد، فالسد كما قلنا هو المانع بين شيئين، وقد يكون مانعًا جبليًا، أو مانعًا مائيًا. وتخبرنا الآيات أنه قابل القوم الذين لا يكادون يفقهون قولا، وقد سبق وقلنا أن المقصود بهم شعب الإسكيمو، وهم الذين أخبروا ذا القرنين عن يأجوج ومأجوج. فهل هناك في قصة بيثياس ما يشير إلى هذا؟ والحقيقة أنه لا يوجد في المقتطفات التي وردت إلينا من كتاب بيثياس ما يشير إلى حادثة يأجوج ومأجوج، أو بناء السد بنفس التفاصيل التي وردت في القرآن، ولكن يوجد ما يشير إلى أن بيثياس قد وصف حادثًا يتشابه مع تأويلنا عن يأجوج ومأجوج من حيث إنهم براكين وفيضانات. ونقرأ في كتاب باري كانليف، أن هناك مخطوطة تعود إلى الشاعر اليوناني الشهير أبولونيوس الرودسي، الذي ولد في الإسكندرية في بدايات القرن الثالث قبل الميلاد، وكان أبولونيوس قد سمع عن رحلة بيثياس، وربما قرأ كتابه الذي وصلت نسخ منه إلى مكتبة الإسكندرية، وظل موجودًا بها حتى احترقت، وقد ورد في المخطوطة أن البحر المتوسط كان يغلي نتيجة نشاط بركاني أمام سواحل إيطاليا، ثم قال: «وهذه الأشياء

قد ذكرها بيثياس المارسيلي في دوائر الأرض، حين قال إن البحر كان يغلي هناك». ويقول باري كانليف أن وصف بيثياس المارسيلي البحر بقوله: «البحر يغلي»، ربما كان على سبيل التشبيه أو الاستعارة الأدبية، وربما كان وصفًا لنشاط بركاني تحت البحر، ثم أضاف: «وليس من المستبعد أن يكون بيثياس قد وصف براكين أيسلندا، والينابيع الحارة في رحلته(52)»، وقد بحثنا في تاريخ النشاط البركاني في أيسلندا في القرن الرابع قبل الميلاد، وهو زمن الرحلة التي قام بها بيثياس، ونقرأ في القائمة الزمنية لنشاط براكين أيسلندا، أنه قد وقع انفجاران في ذلك الوقت في أيسلندا، وكان كلاهما محدودًا؛ الأول وهو بركان «ستورا إلدبورج»، وقد انفجر في أوائل القرن الرابع وهو بركان صغير، وحين انفجر امتدت الحمم لمسافة 2.5 كيلومتر، ووصلت للبحر. أما الثاني فهو بركان «ميفاتن Mývatn»، وهو شق بركاني كبير، وقد انفجر في أواخر القرن الرابع، وهبطت الحمم على الوديان والسهول المنخفضة، ثم ذهبت إلى البحر على بعد 50كيلومترًا. ولعل هذا هو البركان الذي هدد القوم الذي لا يفقهون قولًا، وهكذا حمى بيثياس قريتهم بالردم.

طريق العودة:

يأتي مسار الرحلة بعد ذلك غامضًا؛ نظرًا لقلة ما وصل إلينا من مقتطفات من كتاب بيثياس عن هذا الجزء تحديدًا، ولذا فسوف أكتفي بالمشاهدات الرئيسية التي رآها عن في رحلة العودة، أما النظريات التي

وضعت لطريق العودة، فسنتعرض لها تفصيلًا في الترجمة المزمعة لكتاب باري كانليف بمشيئة الله، أما الآن فإليك أهم الأماكن التي مر بها في طريق العودة:

أرض سكيثيا

كانت هذه الجزئية من رحلة بيثياس في القطب الشمالي أكثر الأجزاء جدلًا وإثارة عند علماء عصره. فقد ادّعى بيثياس أنه وصل إلى أرض سكيثيا (Scythia)، والتي امتدت من شرق آسيا حتى مشارف البحر الأسود. يقول الجغرافي القديم سترابو مهاجمًا بيثياس: «ذكر بيثياس وصفًا لما وراء نهر الراين وحتى حدود مملكة سكيثيا، ونحن نظنه كاذبًا». ويقول بلوبيوس الذي عاصر بيثياس في تعجب شديد: «يدّعى بيثياس أنه قد استكشف أرض الشمال بأكملها قبل أن يدور عائدًا إلى الحدود مع سكيثيا(53)».

وسر تعجب علماء هذا العصر هو الاعتقاد السائد بين الجغرافيين آنذاك من أن الأرض مسطحة وليست كروية. كما ورد في خريطة العالم لإيفروس التي تعود إلى القرن الرابع قبل الميلاد(54). شكل (27)

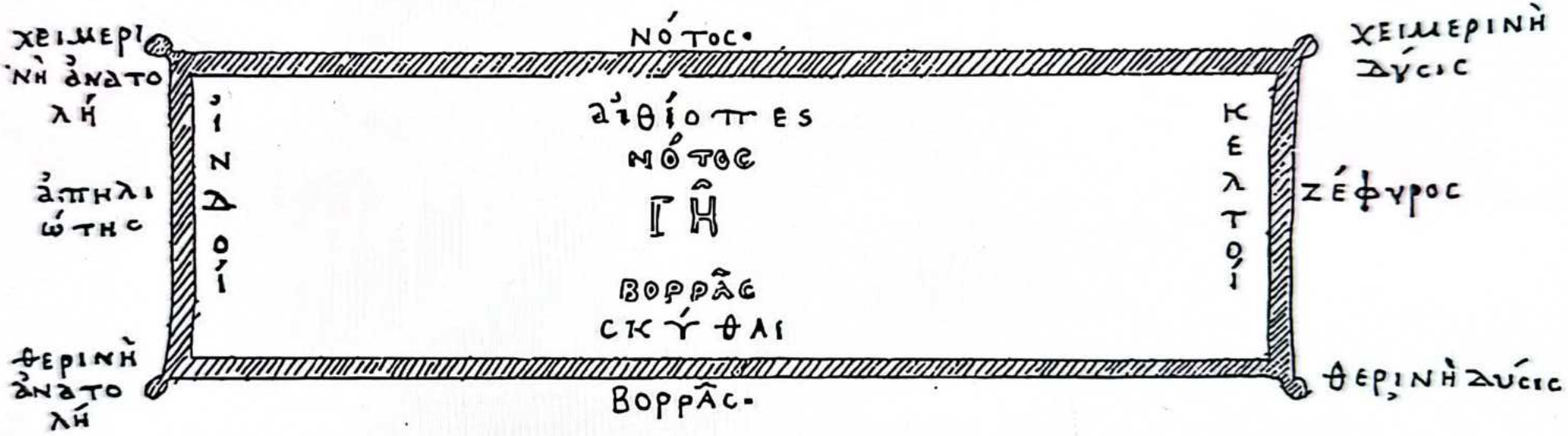
ΝΌΤΟΣ
ΧΕΙΜΕΡΙΝΗ ΑΝΑΤΟΛΗ
ΧΕΙΜΕΡΙΝΗ ΔΥΣΙΣ
ΑΠΗΛΙΩΤΗΣ
ΖΕΦΥΡΟΣ
ΙΝΔΟΙ
ΑΙΘΙΟΠΕΣ
ΝΟΤΟΣ
ΓΗ
ΚΕΛΤΟΙ
ΒΟΡΡΑΣ
ΣΚΥΘΑΙ
ΘΕΡΙΝΗ ΑΝΑΤΟΛΗ
ΘΕΡΙΝΗ ΔΥΣΙΣ
ΒΟΡΡΑΣ

شكل (27) خريطة إيفروس Epherus للعالم القديم في القرن الرابع قبل الميلاد

ويمثل الاعتقاد السائد حينها أن أرض سيكاثيا جهة الشرق، فكيف يدّعي بيثياس الذي أبحر شمالاً أنه مر في أثناء عودته على أرض سكيثيا التي تقع شرقًا؟ وبالطبع فإن هذا التعجب كان سيزول لو علم هؤلاء أن الأرض كروية، وأن الشرق والغرب يقتربان في الشمال.

أرض العنبر:

يتحدث المؤرخ القديم «بليني الأكبر» (Pliny The Elder)، في كتابه «التاريخ الطبيعي»، عن آخر الأجزاء التي وصل إليها بيثياس في القطب الشمالي فيقول: «يقول بيثياس أنه قابل القبائل الألمانية القديمة المعروفة بشعب الجوتون «Gutones»، والذين قطنوا سواحل بحر أطلق عليه اسم مينتونوم، وهو بحر البلطيق. وحينما يبحر الإنسان لمسافة يوم واحد من هذه المنطقة، سيجد جزيرة الأبالوس والتي تلقى الأمواج على شواطئها بقطع العنبر (الكهرمان)، الذي يستخدمه السكان كوقود ويبيعونه كذلك إلى جيرانهم».

وربما يتشابه عثور بيثياس على الكهرمان مع ما رُوي في بعض الروايات عن أن ذا القرنين قد أتى بالزبرجد، والله أعلم.

وترك بيثياس بحر البلطيق ليبدأ رحلة العودة في المحيط الأطلسي. وترى

أغلب المراجع أن بيثياس قد دار عكس عقارب الساعة حول الساحل الغربي لأوروبا، حتى وصل إلى ميناء قادس الإسبانية على المحيط الأطلسي. ثم وصل بعد ذلك -عن طريق اليابسة- إلى مارسيليا.

العودة إلى مارسيليا:

عاد بيثياس إلى مارسيليا بعد رحلة استغرقت ثلاث سنوات، أو خمس سنوات في رواية أخرى، ليحكي لقومه تفاصيل رحلته العجيبة. وكتب في أثناء عودته كتابين؛ أحدهما يحكي تفاصيل الرحلة والقبائل التي تعرف إليها وأسماه «في المحيط» (On the ocean). أما الكتاب الثاني، فكان مخطوطة علمية تحوي معلومات عن خطوط العرض ومنازل الشمس وطبيعة الموانئ في السواحل التي توقف عندها.

كان طبيعيًا أن يشعر أهل مارسيليا بالدهشة لعودة بيثياس بعد سنوات طويلة من الغياب. فالرجل الذي أرسلوه في رحلة لبضعة أشهر من أجل العودة بالقصدير قد غاب لثلاث سنوات كاملة. ولا بد أنهم قد ظنوا هلاكه في ظلمات الأطلسي، ويأسوا من عودته أو عودة أي من طاقم الرحلة بالقصدير. ولكن دهشتهم الأكبر لم تكن بعودة الرجل الذي اعتبروه في عداد المفقودين، وإنما من الأخبار التي نقلها بيثياس عن أراضي الشمال والوصول إلى ثول وما بعد ثول. تلقَّى القوم هذه الأنباء بشيء من الشك والريبة، واطلع علماء الجغرافيا الذين عاصروه على كتابيه وبدأوا في حملة واسعة من التشكيك في كل ما ذكره. وأصدروا حكمًا قاسيًا ظل ملازمًا له

حتى عصر الجغرافي سترابو الذي جاء بعده بقرون، وقال بثقة: «**لقد كذب الرجل فيما نعلمه من جغرافيا الأرض المأهولة، فكيف نصدقه فيما لا نعلم من الجغرافيا**». وتداولت كتب المؤرخين أوصافًا مهينة لبيثياس مثل الكذاب والمخادع والمدلس، ولم يدرِ هؤلاء أن معلوماتهم النظرية التي بنوا عليها تلك الاستنتاجات كانت مغلوطة من الأساس. وشتان بين من يصف الجغرافيا بناءً على رؤية عينيه، وبين من يبني استنتاجاته على معلومات وحسابات نظرية.

وكان من تصاريف القدر أن اختفى الكتابان اللذان كتبهما بيثياس. وقيل إن نسخة ظلت بمكتبة الإسكندرية، حتى احتراقها، وهي التي اطلع عليها بولوبيوس وسترابو، وشككوا في كلام بيثياس بعدها. وكان من الممكن أن يؤدي فقدان هذين الكتابين إلى جهلنا بهذا الرحالة الفذ، وبإنجازاته الكبرى، لولا أن جعل الله له ذكرًا في كتب خصومه وأعدائه. فقد عكف هؤلاء الناس على ذكر مقتطفات من كتابي بيثياس للرد عليها، فكانوا يبدؤون الفقرات بقولهم: «يقول بيثياس...»، ثم يردون على ما قاله بعد ذلك. وقد جمع الباحثون تلك الفقرات لاحقًا، ووصفوا منها رحلة بيثياس التي ذكرناها آنفًا.

ولم يخلُ الأمر من بعض المؤرخين المنصفين الذين آمنوا بصحة حسابات بيثياس، مثل بليني وتيموس، كما ألهمت رحلة بيثياس خيال الشعراء الكبار مثل الشاعر الروماني فرجيل «Virgil» الذي كتب ملحمة الإنياذة

«Aenied» في نهاية القرن الأول قبل الميلاد مستلهما بعض أحداثها من رحلة بيثياس في ثول.

وقد أرجع البعض هذا العداء لبيثياس من علماء عصره إلى الغيرة والمنافسة العلمية، ولكننا لا يمكن أن نتصور أن إنجازًا علميًا بمثل هذا الحجم، يمكن أن يتم إنكاره لمجرد الغيرة العلمية. ولو أضفنا إلى ذلك اختفاء كتب بيثياس دون غيره من العلماء الذين عاصروه، لكان الأقرب أن نتصور أن بيثياس قد تعرض للاضطهاد والتكذيب والسخرية لسبب آخر غير التنافس العلمي بين الأنداد. ونحن نفترض أن هذا الاضطهاد كان مرجعه إما دينيًا أو عرقيًا.

ويقودنا هذا إلى دراسة بعض التفاصيل عن شخصية بيثياس الدينية والفكرية، وكذلك عن الحياة الفكرية في مارسيليا في زمن الرحلة.

عقيدة بيثياس ومذهبه الفكري

لا يوجد في المصادر جميعها التي اطلعنا عليها أي ذكر لديانة بيثياس، أو مذهبه الفكري. وعلى أية حال، نستطيع أن نستنبط من خلال قراءة الرحلة التي قام بها بيثياس، أنه كان يتمتع بسمات شخصية مميزة إلى جوار قدراته العلمية الفذة، فهو بلا شك رجل متسامح، محبوب ومنفتح على الشعوب التي قابلها، بدليل انخراطه لشهور طويلة وسط هذه الشعوب وتفاعله معها، فضلًا عن قدراته العالية في القيادة، فرغم مخاطر هذه

الرحلة وأهوالها، وعدم وجود مبرر حقيقي لاستمرارها سوى الشغف بالمعرفة والاكتشاف، استطاع هذا الرجل أن يسيطر على تلك الحملة طيلة هذه السنوات دون تذمر، وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على أن من اتبعوا بيثياس في تلك الرحلة لم يكونوا مجرد تابعين مأمورين، وإنما مؤمنون برسالته وأهدافه.

ونعود إلى مارسيليا التي كانت تحيا في ازدهار خلال القرن الرابع قبل الميلاد، وتنتشر بها الحركات الفكرية المختلفة، وكان لها دستور ومجلس شيوخ من ستمائة نبيل. وكانت تتبنى مبادئ أرسطو، فضلًا عن احترامها للأفكار الوافدة، طالما لا تؤثر في النظام العام، وإن لم يمنع هذا من وقوع مشاحنات بين المدارس الفكرية المختلفة. ومن الأفكار التي لاقت انتشارًا في عصر بيثياس، أفكار بيثاغورس (pythagoros)، العالم الرياضي الشهير الذي أسس مدرسة فكرية في ساموس في القرن السادس قبل الميلاد، وبعد وفاته نقلها تلاميذه المعروفون باسم «إخوان بيثاغورس» إلى أماكن مختلفة من العالم، ومنها مارسيليا. وقد اصطدم بيثياس بأفكار إخوان بيثاغورس التي كانت تخالف منهجه. فكما ذكر أرسطو: «كان النموذج الفيثاغورسي قائمًا على المفهوم العقلي والبناء النظري المنطقي، أكثر من الملاحظة»، أما بيثياس فكان يرى أن «الملاحظة»، و«النظرية» يسيران جنبًا إلى جنب، وهذا سر نجاح بيثياس المارسيلي في رحلته الاستثنائية التي جمعت بين المشاهدة العينية، والإثبات العلمي للحقائق.

فقد نفذ حرفيًا مقولة أرسطو: «يجب أن نجمع حقائق، وليس النظريات».

وبجانب الحركات الفلسفية التي انتشرت في مارسيليا، كانت هناك دلائل على وجود هجرات كثيرة من الشرق بسبب نيران الحروب المشتعلة بين الفرس والآشوريين واليونانيين. فنزح إلى مارسيليا أتراك وآثينيون، وأيضًا ساميون. وكلٌ كان يحمل عقيدته معه ويعيش تحت مظلة التسامح هناك، وكان من بين الهجرات السامية، هجرة بعض قبائل وأسباط اليهود إلى غرب أوروبا بسبب الغزو الآشوري، الذي دمر مملكة إسرائيل الشمالية، وهجَّر أهلها، فيما عرف باسم السبي الآشوري، والذي فُقِد على إثره عشرة من أسباط بني إسرائيل، ولم يعودوا إلى بلادهم مرة أخرى. ونقرأ لباحث التاريخ اليهودي البريطاني «فاليري مالتريو» في بحث بعنوان «بقايا بني إسرائيل في فرنسا»، أن المؤرخ اليوناني الشهير هيرودوتس أشار إلى مصير بعض القبائل العشرة المفقودة لبني إسرائيل في كتابه، وقال إن هذه القبائل قد نزحت شمالًا وغربًا بعد اكتساح الآشوريين لمملكتهم، فتمركزت أولًا في أرمينيا قبل أن تنزح إلى غرب أوروبا وفرنسا. ويشير المؤلف إلى أن سبط روبين قد انتشر في غرب أوروبا، أما سبط دان فقد تمركز في مارسيليا لعلاقتهم الوطيدة بالفينيقيين ولإجادتهم لفنون الملاحة(55)».

ويدعي فاليري أن مما يدل على وُجود سبط دان في غرب أوروبا هو وجود الكثير من الأنهار والأماكن في غرب أوروبا وإنجلترا تحمل اسم دان منذ قديم الأزل مثل نهر الدانوب ونهر دان- يبير ونهر دون. وبعيدًا عن إصرار

باحثي التوراة على تأكيد أسبقية وجودهم، في أي مكان بالأرض، رغم أن أعدادهم لا تسمح بذلك، إلا أننا نتفق على أن مارسيليا المنفتحة على العالم في القرن الرابع قبل الميلاد ربما استقبلت بعض اليهود المهاجرين.

وربما يفسر هذا معرفة اليهود برحلة هذا الرجل الطواف المدعو بيثياس المارسيلي. والتي انتقلت سيرته أيضًا إلى الشرق بعد أن وصل كتابه إلى الإسكندرية، وقام سترابو الشهير بنقده وتكذيبه في كتابه «الجغرافيا» الذي كتبه في الفترة بين عامي 20 ق.م. و25 ميلاديًا.

ونحن لا نظن أن بيثياس كان تابعًا لأي مذهب ديني، بل كان رجلًا صالحًا انتهج نهجًا مختلفًا جمع بين السماحة، والإيمان والخيرية، ومساعدة الآخرين، فضلًا عن شغفه العلمي؛ ولهذا وصفه باري كانليف بقوله: «لم يكن بيثياس مجرد رحالة، وإنما شخص مهتم بالأنثروبولوجي وبالبحث عن السكان الأصليين في الأماكن التي زارها، كان بيثياس فيلسوفًا، وجامعًا للحكايات ومسح شمال أوروبا من بريطانيا وحتى حدود العالم الشمالية بعلمه».

ولعل أكثر الأشياء إثارة في بحثنا هذا هو معنى كلمة «بيثياس»، والتي نظن أنها تكشف الكثير من حقيقة هذا الشخص الاستثنائي.

فكلمة بيثياس تكتب في اللغة اليونانية Πυθέας، وتترجم في الإنجليزية Pythias، والأصل اللساني الذي اشتق منه ذلك الاسم هو كلمة

بيثيا، والتي تكتب في اللغة اليونانية Πύθια وتترجم إلى الإنجليزية Pythia. وحين نبحث عن معنى كلمة بيثيا نجد أن الكلمة تعود في الأصل إلى بيثيا كاهنة الإله أبولو التي كانت تنقل عنه الوحي، في معبد دلفي، في الميثولوجيا الإغريقية، ويشتق منها كل ماله علاقة بالنبوة أو الوحي، أو الوساطة الروحية، فنقرأ في القاموس ما يلي:

Pythia: بيثيا

The priestess of Apollo at Delphi who delivered the oracles

كاهنة أبوللو في ديلفي التي تنقل الوحي.

Python: بايثون

A person who is possessed by a spirit and prophesies by its aid.

شخص مسكون بروح ويتنبأ بمساعدتها.

Pythonic: بايثونيك

.Prophetic; oracular

متعلق بالنبوة أو الوحي أو الوساطة الروحية.(56)

وحيث إن أغلب أسماء الأعلام اليونانية المذكرة تنتهي بحرف السين أو (S)، فإن اسم بيثياس Pytheas يمكن ترجمته بناء على الاشتقاقات

السابقة على أنه نبي أو وسيط روحي أو شخص متصل بالسماء عن طريق الوحي. وعلى هذا فإن «بيثياس المارسيلي» قد تترجم إلى «النبي المارسيلي»، والله تعالى أعلم.

خاتمة

وبعد، فقد قدمنا في هذا الكتاب تأويلنا عن يأجوج ومأجوج، بعد أن خرجنا من عباءة الروايات الكاذبة التي تسللت إلى تراثنا الإسلامي عن طريق الإسرائيليات، فاستندنا إلى المعنى اللغوي للكلمتين في تفسير آيات القرآن الكريم التي ورد فيها ذكر يأجوج ومأجوج، وأيضًا في تأويل الأحاديث الصحيحة المتفق عليها، وبما يتناسب مع معطيات عصرنا من علوم.

كما نقدنا أيضًا الشخصيات التاريخية التي اقترحها الباحثون لأن تكون هي شخصية ذي القرنين، وعرضنا نقاط القوة والضعف التي ترجح أو تضعف من كل فرضية. وانتهينا إلى أن ذا القرنين لم يكن ملكًا من الملوك، وإنما رحالة ومستكشف وصل إلى أماكن لم يصلها أحد من قبله، وشاهد من خلال رحلته قبائل وشعوب وظواهر فلكية عجيبة لم يصفها أحد من قبله. وقد ألقينا الضوء على رحلة «بيثياس المارسيلي»، وأظهرنا مدى تطابق الرحلتين في كثير من الأشياء، وعرضنا ما قاله المؤرخون عن هذه الرحلة وعن حياة هذا الرجل وديانته.

إن تأويلنا ليأجوج ومأجوج، أو عرضنا لقصة بيثياس المارسيلي، وإظهار مدى التطابق بينها وبين رحلة ذي القرنين لا يهدف إلى تحقيق اكتشاف تاريخي علمي، أو ادعاء الوصول إلى الحقيقة المطلقة، فهذا أمر غيبي لا يعلمه إلا الله، ويخضع في نهاية الأمر إلى استقراء التاريخ والأحداث. وقد

يخطئ الإنسان فيه أو يصيب. ولكن الثمرة المرجوة من هذا البحث هو التدبر في القصص القرآني؛ لنستخلص منه القيمة الروحية التي تبقى حلاوتها في الوجدان، وهذا هو السر في روعة القصص القرآني عما سواه، فهو صالح للتدبر في كل زمان. ونحن نجد في قصة ذي القرنين قيمًا روحية عديدة، ولكنها تصب في النهاية في بوتقة واحدة وهي التسامح، والأخذ بالأسباب وإعمال العقل والتفكير والتعاون، حتى ولو كان في مواجهة الظواهر الكونية. ويزداد الإحساس بتلك القيم حينما يستحضر القارئ صورة ذهنية لذي القرنين تقترب من الواقع، وتخلو من الخيال، أو الصبغة الأسطورية التي يضفيها المفسرون على هذه الشخصية. ونموذج بيثياس المارسيلي هو الأقرب من وجهة نظري في إعطاء هذا الأثر الوجداني. فهذا الإنسان الفذ استطاع بعلمه وبقدرته على الملاحظة والاستنباط أن يقوم برحلة أسطورية بمقاييس عصره، كما كان سمحًا، مبادرًا بالمعونة، واستطاع أن يواجه ظاهرة كونية رهيبة كادت تفتك ببعض الشعوب التي قابلها بأسلوب علمي رائع. وشتان بين هذه القيم، التي تدعو للاصطفاف، وبين قيم الصراع والعنف والقتل وتقسيم العالم التي تروجها النسخة التوراتية من يأجوج ومأجوج، والتي تسللت للأسف إلى فكرنا الإسلامي. وقد يفتح هذا الفهم الصحيح بابًا للأمل في أن نتعاون في مواجهة الخطر المحدق الذي ينتظرنا، ومن يدري، فقد يأتي من يتبع طريقة ذي القرنين في مواجهة البراكين والفيضانات، ويقي البشر شر هذه المحن. والله -سبحانه وتعالى- أعلم.

المراجع

المراجع العربية:

- القرآن الكريم.

- الجامع لأحكام القرآن - للإمام محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي - دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان.

- تفسير الشيخ الشعراوي - طبعة أخبار اليوم.

- تفسير ابن كثير - طبعة دار المعرفة - لبنان - 1983.

- صفوة التفاسير - محمد علي الصابوني - دار القرآن الكريم - لبنان.

- جامع البيان في تفسير القرآن للإمام الطبري - المطبعة الأميرية - مصر.

- مشكل إعراب القرآن - مكي بن أبي طالب القيسي - تحقيق ياسين محمد السواسي - طبعة دمشق - 1974.

- معجم لسان العرب - دار صادر - بيروت - 1963.

- معجم مقاييس اللغة - لابن فارس - طبعة دار الفكر - 1979.

- المعجم الوسيط - إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة - الطبعة الثالثة - 1998.

- صحيح البخاري - للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري - طبعة المكتبة الإسلامية - إسطنبول - تركيا.

- فتح الباري شرح صحيح البخاري - للإمام ابن حجر العسقلاني - طبعة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد - بالمملكة السعودية.

- صحيح مسلم بشرح النووي - للإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري - طبعة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد - بالمملكة السعودية.

- الجغرافيا الطبيعية - آرثر استريهل - ترجمة الدكتور محمد السيد غلاب - الجزء الأول - مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنية، القاهرة، 1998.

- موسوعة ويكيبيديا - الموسوعة الحرة: www.en.wikipedia.org

- معجم البلدان: ياقوت الحموي - المجلد الأول - دار صادر - بيروت.

- مبلغ الأرب في فخر العرب - ابن حجر الهيتمي.

- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق - الشريف الإدريسي طبعة 1989 - عالم الكتب للطباعة والنشر.

- الموسوعة العربية العالمية - النسخة الإعلامي - www.mawsoah.net

- الإسكيمو.

- لغات الإسكيمو والإليوت.

- الفيضانات ذات الصلة البركانية: كتابة سكوت وآخرون - تقرير مفتوح من الحكومة الأمريكية عن منطقة مونت آدامز - واشنطن - 1995.

- الكتاب المقدس - العهد القديم والجديد - مترجم من اللغات الأصلية - طبعة دار الكتاب المقدس.

- تفسير الكتاب المقدس - القمص تادرس يعقوب ملطي - حزقيال 38-39.

- تفسير الكتاب المقدس - القس أنطونيوس فكري - حزقيال 38-39.

- بروتوكولات حكماء صهيون - ترجمة محمد خليفة التونسي - طبعة دار الإرشاد.

- The Valley of Vision; or The Dry Bones of Israel «وادي الرؤيا في تفسير رؤيا حزقيال أو إحياء عظام بني إسرائيل» - القس جورج بوش - ترجمة د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ - دار المريخ - الرياض.

- معركة هرمجدون وتأسيس مملكة الرب في التوراة والإنجيل والقرآن - تأليف كارلوتا جونز - ترجمة أحمد علي أحمد - دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع - 2002.

- ذو القرنين شخصية حيرت العلماء وكشف عنها أبو الكلام آزاد. مقال

بمجلة العربي العدد 184 - د. عبد المنعم نمر، وزير الأوقاف الأسبق.

English References

1. Mailhot, J. (1978). «L'étymologie de «Esquimau» revue et corrigée.» Etudes Inuit/Inuit Studies 2- 2:59- 70

2. Volcanic related floods from: Scott, et.al., 1995, Volcano Hazards in the Mount Adams Region, Washington: USGS Open-File Report 95- 492.

3. Bostrom, Nick (2002) «Existential risks: analyzing human extinction scenarios and related hazards». J Evol Technol 9 (1)

4. Raphaël Paris, Alessandra Smedile, Simon Falvard, Jean-Luc Devidal, Krzysztof Suchorski, A Minoan and a Neolithic tsunami recorded in coastal sediments of Ios Island, Aegean Sea, Greece, Marine Geology,Volume 452, 2022

5. Ritner, R.K., Moeller, N., 2014. The Ahmose 'Tempest Stela', Thera and comparative chronology. Journal of Near Eastern Studies 73,1- 1

6. The last of Giants:Lifting the veil on Islam and the end

times, George Otis , 1991, Chosen books,amazon

7. Prehistoric times: John Lubbock- Google books

8. Jerusalem Countdown: A Warning to the World, john Hagee, 2006

9. Barry Cunliffe: extraordinary voyage of pytheas the Greek, Penguin books

10. Clements Markham: Pytheas the discoverer of Britain- The Geographical Journal, Vol. 1, No. 6 (Jun., 1893), pp. 504- 524

11. Isaiah Bowman: Polar Exploration, Science, New Series, Vol. 72, No. 1870 (Oct. 31, 1930), pp. 439 -449

12. K. Zimmermann: Pytheas of Massalia, The Classical Review, New Series, Vol. 50, No. 1 (2000), pp. 28- 30

13. Ian Whitaker The Problem of Pytheas' Thule, The Classical Journal, Vol. 77, No. 2 (Dec., 1981 - Jan., 1982), pp. 148- 164

14. Vincent H. de P. Cassidy: The Voyage of an Island,

Speculum, Vol. 38, No. 4 (Oct., 1963), pp. 595- 602

15. P. C. N. Stewart: Inventing Britain, Britannia, Vol. 26 (1995), pp. 1- 10

16. R. Chevallier: The Greco-Roman Conception of the North from pytheas to Tacitus. The Arcatic: VOL. 37, NO. 4 (DECEMBER 1984) P. 341- 346

17. D. E. Eichholz: A Greek Traveller in Tudor England, Greece & Rome, Vol. 16, No. 47 (Apr., 1947), pp. 76- 84

18. Cameron McPhail: PYTHEAS OF MASSALIA'S ROUTE OF TRAVEL PHOENIX, VOL. 68 (2014) 1 - 2.

19. Elise C. Otte: Scandanivian history, amazon books

20. Nesta Webster: Secret societies and subversive movements. Bowsel publishing London 1924

21. Valeri Malterw: A Remnant of Isreal In france. Ensign Massage Journal

22. https://www.dictionary.com/browse/pythia

23. https://www.dictionary.com/browse/python

24. https://www.dictionary.com/browse/pythonic

---

(1) "الطبقات الكبرى" لابن سعد.

(2) التفسير الميسر - مجمع الملك فهد للطباعة - 2009

(3) الجامع لأحكام القرآن - تفسير القرطبي - دار الرسالة.

(4) تفسير القرآن العظيم لابن كثير - دار بن حزم.

(5) المصدر قبل السابق.

(6) لسان العرب لابن منظور - دار المعارف.

(7) معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس بن زكريا - دار الفكر.

(8) تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل آي القرآن - مؤسسة الرسالة.

(9) نفس المرجع السابق.

(10) الجامع لأحكام القرآن - تفسير القرطبي - دار الرسالة.

(11) الشيخ محمد رشيد رضا: أحد رواد الإصلاح الإسلامي، وتلميذ الإمام محمد عبده، توفي عام 1935، وأسس مجلة المنارة الإسلامية. وقد وضع "تفسير المنار"، وقال عنه الشيخ محمد الغزالي "إنه ترجمان القرآن، والمفتي العالم بأهداف الإسلام والمستوعب لآثاره". وكان ينتهج في تفسيره المنهج العقلي، ويقول: "إن العقل يشارك النقل في الدين،

بكونه مدركًا له، وإن العقل مشارك للنقل في تفسير النصوص القرآنية، ولا يجوز أن نحرف الآية عما يقتضيه سياقها إلا بحجة من خبر صحيح أو عقل"، وقد اتخذ الشيخ محمد رشيد رضا موقفًا رافضًا لجميع الأحاديث الواردة عن أشراط الساعة، حتى ما ورد منها في الصحيحين، وبالأخص أحاديث الدجال والمهدي المنتظر والجساسة، وقال عبارته الشهيرة: "إنها متعارضة تعارضًا يوجب تساقطها"، فضلًا عن "مخالفة هذه الأحاديث لبعض القطعيات في الدين". وقد أثارت هذه الآراء ردود أفعال كثيرة حينها، ولكن لاحقًا استشهد بها الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين، حينما أنكر حديث الجساسة، الوارد في صحيح مسلم وقال: "إن النفس لا تطمئن إلى صحته عن النبي ﷺ؛ لما في سياق متنه من النكارة"، ثم استشهد بالشيخ محمد رشيد رضا، وقال: "وقد أنكره الشيخ محمد رشيد في تفسيره المنار إنكارًا عظيمًا".

(12) تفسير المنار ج9/ 449.

(13) آراء محمد رشيد رضا العقائدية في أشراط الساعة الكبرى وآثارها الفكرية، مشاري سعيد المطرفي، مكتبة الإمام الذهبي، الكويت، صفحة 164.

(14) Mailhot, José. "L'étymologie de "Esquimau" Revue et Corrigée." Études/Inuit/Studies, vol. 2, no. 2, 1978, pp. 59-69.

(15) . الإسكيمو - الموسوعة العربية - لريحاني ألبرت - دار الريحاني - بيروت.

(16) معجم الجيولوجيا (انجليزي-فرنسي-عربي) حسين عبد المحسن حسن، أكاديميا، إصدار 1998.

(17) معجم الجيولوجيا (انجليزي-فرنسي-عربي) حسين عبد المحسن حسن، أكاديميا،

إصدار 1998.

(18) Bostrom, Nick (2002) "Existential risks: analyzing human extinction scenarios and related hazards". J Evol Technol 9(1).

(19) Petraglia, Korisettar, R., Pal, J.N., The Toba Volcanic Super-eruptionof 74,000 Years Ago: Climate Change, Environments, and Evolving Humans, Quaternary International(2011).

(20) Raphaël Paris, Alessandra Smedile, Simon Falvard, Jean-Luc Devidal, Krzysztof Suchorski, A Minoan and a Neolithic tsunami recorded in coastal sediments of Ios Island, Aegean Sea, Greece, Marine Geology,Volume 452,2022.

(21) Ritner, R.K., Moeller, N., 2014. The Ahmose 'Tempest Stela', Thera and comparative chronology. Journal of Near Eastern Studies 73,1-1.

(22) تفسير المنار - للشيخ محمد رشيد رضا - (9/489).

(23) موقع الفتوى إسلام ويب: حديث الجساسة بين إنكار بن عثيمين وإثبات المحدثين. فتوى 204022.

(24) "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" المؤلف: محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسيني الشريف الإدريسي، مكتبة الثقافة، 934.

(25) How do you stop the flow of lava? https://www.bbc.com/news/magazine-29136747.

(26) Theguardian.com/world/2024/mar/17/iceland-volcanic-eruption-barriers-reinforced-lava-grindavik.

(27) https://en.wikipedia.org/wiki/Solar_apex

(28) حبيب سعيد - المدخل إلى الكتاب المقدس - صادر عن الكنيسة الأسقفية بالقاهرة بالاشتراك مع مجمع الكنائس في الشرق الأدنى- 116.

(29) المصدر السابق

(30) انظر تادروس يعقوب ملطي - والقس أنطونيوس فكري تفسير الإصحاح 38 و39 من سفر حزقيال - موقع الأنبا تكلا.

(31) Selected Findings from The Baylor Religion Survey September 2006 American Piety in the 21st Century: New Insights to the Depth and Complexity of Religion in the US.

(32) Goerge Otis: The last of Giants: Lifting the Veil on Islam and the End Times. Dimensions publisher 1991.

(33) كارلوتا جيزون: "معركة هرمجدون وتأسيس مملكة الرب في التوراة والإنجيل والقرآن"، ترجمة: أحمد علي، 2002.

(34) Johb Hagee: Jerusalem Countdown: A Warning to the World. 2006.

(35) Jean-Claude Maurice: Si vous le répétez, je démentirai... - Chirac, Sarkozy, Villepin. Plon - France -2009.

(36) Ciancaglini, Claudia A. (2001). "The Syriac Version of the Alexander Romance". Le Muséon. 114 (1-2): 121-140.

(37) كتاب العظمة لأبي الشيخ الأصفهاني - تحقيق رضاء الله بن محمد إدريس المباكفوري، دار العاصمة - الرياض ج4.

(38) Edward M. Anson, Religion and Alexander the Great, Karanos 5, 2022 51-74

(39) 1. Cannop Thirlwall: History of Greece. Vol VII, London, Longman 1852.

(40) حبيب سعيد - المدخل إلى الكتاب المقدس - صادر عن الكنيسة الأسقفية بالقاهرة بالاشتراك مع مجمع الكنائس في الشرق الأدنى.

(41) Cunliffe, Barry (2001). The Extraordinary Voyage of Pytheas the Greek. London, England: Penguin Group.

(42) هاينكة زودهوف: معذرة كولومبس لست أول من اكتشف أمريكا. ترجمة د. حسن

عمران - العبيكان - 2001.

(43) Purcell, N. Himilco (1), of Carthage, pioneering Atlantic navigator. Oxford Classical (2016, March 07).

(44) Clements Markham: Pytheas the discoverer of Britain - The Geographical Journal, Vol. 1, No. 6 (Jun., 1893), pp. 504-524.

(45) المصدر السابق

(46) Cunliffe, Barry (2001). The Extraordinary Voyage of Pytheas the Greek. London, England: Penguin Group. P57

(47) Cunliffe, Barry (2001). The Extraordinary Voyage of Pytheas the Greek. London, England: Penguin Group.

(48) Ian Whitaker The Problem of Pytheas' Thule, The Classical Journal, Vol. 77, No. 2 (Dec., 1981 - Jan., 1982), pp. 148-164.

(49) Tillisch, S.S. (2022) "Pytheas the Massaliot and the Baltic. Myth or Reality?", Archaeologia Lituana, 23, pp. 176-194.

(50) Cunliffe, Barry (2001). The Extraordinary Voyage of Pytheas the Greek. London, England: Penguin Group. Page 128.

(51) المصدر السابق

2575565132

(52) https://en.wikipedia.org/wiki/List_of_volcanic_eruptions_in_Iceland#cite_note-Reynir-134

(53) Cameron McPhail: PYTHEAS OF MASSALIA'S ROUTE OF TRAVEL PHOENIX, VOL. 68 (2014) 1-2.

(54) . المرجع السابق

(55) Valeri Malterw: A Remnant of Isreal In france. Ensign Massage Journal

(56) https://www.dictionary.com/browse/pythia

https://www.dictionary.com/browse/python

https://www.dictionary.com/browse/pythonic